

القسم الرابع
العريضة الفصحى والتعريب
والنظر المعاصر فيها

من التعريب كلمة (القسطاس) في قوله تعالى:

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾

[الإسراء - ٣٥].

الموضوع الأول

اللغة العربية الفصحى والتعريب - والنظر المعاصر فيها^(١)

تمهيد (نظرات في اللغة)

سنركز نظرتنا في أربعة أشياء هي:

١ - لم ندرس في مرحلة الإجازة الجامعية في دمشق شيئاً من «الكتاب» الذي جمعه سيبويه من أقوال عدد من علماء اللغة والنحو، في مقدمتهم الخليل بن أحمد الفراهيدي، صاحب العقل الجبار. ولم ندرس شيئاً منه في مرحلة الماجستير في جامعة القاهرة، ولا في مرحلة الدكتوراة في الجامعة الأردنية. ولعل ذلك جارٍ في كل أقسام اللغة العربية، في البلاد العربية.

وفي نظري أن الذي لا يقرأ - الكتاب - إنما ينقصه شيء من النحو، ولو كان متخصصاً فيه من بين فروع اللغة العربية الأخرى. لأنه يطلعك على اللغة والنحو معاً. أسلوبه لغوي سليم، ونحوه فيه تفاصيل وخلافات تجعلك تفقه النحو، ولا تكفي بحفظه^(٢). لا شك أن بعض المسائل فيه قد تجاوزها الأدباء والكتاب خلال العصور، وفي العصر الحاضر، خلال ثلاثة عشر قرناً، وهي التي مرت على اللغة العربية بعد تأليف «الكتاب». وهذه الكلمة ليست مخصصة لمثل هذه التجاوزات، وإنما أكتفى بمثل واحد من مبحث النسبة؛ يقول سيبويه:

- هذا باب الإضافة إلى الاسمين اللذين ضم أحدهما إلى الآخر، فجُعلا اسماً واحداً.
- والإضافة عنده هي النسبة^(٣). يقول سيبويه: كان الخليل يقول: تلقى الآخر منهما، كما تلقى الهاء من حمرة وطلحة عند الجمع، لأن طلحة بمنزلة حضر موت. فمن ذلك

(١) كتبت سنة - ٢٠٠١م.

(٢) كنت قرأت مقدمة ابن خلدون سنة - ١٩٦٥م - عندما تخرجت في المرحلة الجامعية الأولى - ولا بد أن هذا الوصف قد علق بذهني من المقدمة - ففيها كلام كهذا، ولكن، يعسر أن يعود إلى ذهني لولا أنني أحسست به، من خلال قراءتي لكتاب سيبويه، فالتقي الأمران معاً - الذاكرة، والقناعة العملية، بعد قراءة (الكتاب).

(٣) - في كتابي: [الرؤى النحوية] - الذي أسلفت ذكره غير مرة. وجهت انتقادات كثيرة لكتاب - سيبويه (ومثله كل كتب النحو) - وأتيت - بالبدل - المناسب.

خَمْسَةَ عَشَرَ وَمَعْدٍ يَكْرَبُ فِي قَوْلٍ مِنْ لَمْ يُضَفْ. فَإِذَا أُضِيفَتْ قُلْتُ: مَعْدِيَّ وَخَمْسِيَّ. أَيْ: مَعْدِيَّ نَسَبَةً إِلَى مَعْدٍ يَكْرَبُ، وَخَمْسِيَّ نَسَبَةً إِلَى خَمْسَةَ عَشَرَ. وَأَقُولُ: النَّاسُ قَدْ تَجَاوَزَتْ ذَلِكَ، فَلَا يَنْسَبُونَ إِلَى الْإِثْنَى عَشَرَ مِثْلًا بِقَوْلِهِمْ: تَنَوَّيْتُ، كَمَا رَأَى الْخَلِيلُ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ: الْمَضْرَانُ الْإِثْنَا عَشْرِيَّ بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَنْسَبُونَ إِلَى الْجِزءِ الثَّانِي مَعَ الْحِفَافِ عَلَى الْجِزءِ الْأَوَّلِ وَمِثْلُ ذَلِكَ.. حَضَرَ مَوْتًا. فَهَمْ يَنْسَبُونَ إِلَى الْجِزءِ الْأَوَّلِ وَحَرْفٍ مِنَ الْجِزءِ الثَّانِي، فَيَقُولُونَ: حَضَرَمِيَّ. أَمَّا بَعْلَبَكُ.. فَقَدْ نَسَبَ لَهَا الْخَلِيلُ عَلَى - بَعْلَبِيَّ - وَالنَّاسُ الْيَوْمَ يَقُولُونَ: بَعْلَبَكِيَّ، مِثْلُ مَنِيرِ الْبَعْلَبَكِيَّ الْكَاتِبِ الْمَعْرُوفِ. وَهَمْ بِذَلِكَ يَنْسَبُونَ إِلَى الْجِزئَيْنِ كَامِلَيْنِ.

- وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ. لَقَدْ تَجَاوَزَتْ إِلَى الْمَضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ النَّسَبَةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، مِثْلًا، كَثِيرًا مِمَّا قَالَهُ الْخَلِيلُ. لِأَنَّ الذَّوْقَ اللَّغَوِيَّ تَغْيِيرًا، وَلِأَنَّ - الْوَضُوحَ - مَطْلَبُ أَسَاسِيٍّ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ، سِوَا أَنْ كَانَتْ مُرَكَّبَةً أَمْ مُفْرَدَةً. لِأَنَّ اللَّغَةَ - أَيْ لُغَةً - جَاءَتْ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُخْرِجَ الْإِنْسَانَ مِنَ الْمُبْهَمِ إِلَى الْوَاضِحِ، مَعَ تَرْكِ خُصُوصِيَّةٍ لِلْعَمُوضِ الدَّالِّ فِي الْأَدَبِ. وَلَا شَكَّ أَنَّ - بَعْلَبِيَّ - فِي النَّسَبَةِ إِلَى - بَعْلَبِكُ - لَا تَدُلُّ دَلَالَةَ النَّسَبَةِ إِلَى الْجِزئَيْنِ بِقَوْلِنَا: بَعْلَبِكِيَّ. وَكَمَا أَنَّ الْقِدَامِيَّ أَهْلَ اللَّغَةِ فَنَحْنُ أَهْلُهَا كَذَلِكَ، فَمِنْ حَقِّقْنَا أَنْ نَصْرَفَهَا بِحَيْثُ تَبَعَدْنَا عَنِ الْعَمُوضِ.

- وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ: قَالَ الْخَلِيلُ كَذَا وَأَنْتُمْ تَخَالِفُونَهُ فَانْتُمْ مَخْطُؤُونَ، لِأَنَّ أَهْلَ اللَّغَةِ كَمَا أَسْلَفْنَا وَلِأَنَّ نَرِيدُ أَنْ تَكُونَ اللَّغَةُ مَفْهُومَةً وَمُسْتَسَاغَةً لِلْمَتَعَلِّمِ الْعَرَبِيِّ وَغَيْرِ الْعَرَبِيِّ، وَلَيْسَ هَدَفْنَا أَنْ نُنْفِرَ النَّاسَ مِنْهَا بِهَذَا التَّقَعُّرِ الَّذِي يُخْرِجُ اللَّغَةَ عَنِ وظيفتها. إِنَّ تَقْرِيْبَ الْفُصْحَى مِنْ أذْوَاقِ النَّاسِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ نَنْزِلَ بِهَا إِلَى الْعَامِيَّةِ الْفَقِيرَةِ، مَطْلَبُ أَسَاسِيٍّ يَجِبُ احْتِرَامَهُ وَالِاتِّزَامَ بِهِ. إِنَّ اللَّغَةَ كَانَتْ اجْتِمَاعِيَّ حَيٍّ يَنْمُو وَيَتَطَوَّرُ كَمَا يَنْمُو وَيَتَطَوَّرُ الْمَجْتَمَعُ وَيَتَطَوَّرُ. مِنْ دُونِ أَنْ تَخْرِجَ اللَّغَةَ عَلَى أَصُولِهَا وَقَوَانِينِهَا فِي التَّطَوُّرِ هَذِهِ الْأَصُولُ الَّتِي جَاءَتْ عَنْ طَرِيقِ (الْإِلْهَامِ) - كَمَا أَسْلَفْنَا الْقَوْلَ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي.

٢ - بَعْدَ هَذَا الْاسْتِطْرَادِ الَّذِي اقْتَضَاهُ الْمَقَامُ نَقُولُ: وَرَدَ فِي الْكِتَابِ: «وَقَالَ الْخَلِيلُ: قَوْلُكَ هَذَا شَاءَ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعَدْرِيَّ جَعَلَهُ دَكَّاءً وَكَانَ وَعْدْرِيَّ حَقًّا﴾ [٩٨] [الكهف: ٩٨].

نَقُولُ: هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ، كَمَا نَرَى، بِالْإِشَارَةِ الْأُولَى - هَذَا - لِلشَّاءِ. أَمَّا الْإِشَارَةُ الثَّانِيَّةُ فَهِيَ لِلسَّاءِ أَيْ: بِنَاءُ هَذَا السَّاءِ رَحْمَةً مِنْ رَبِّي. ثُمَّ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: هَذَا شَاءٌ وَهَذِهِ شَاءَةٌ. وَذَلِكَ.. حَسَبَ الْمَعْنَى الْمَضْمُنِّ فِي الْكَلِمَةِ، فَإِذَا كُنْتَ تَقْصِدُ التَّيْسَ قُلْتَ: هَذَا شَاءَةٌ، لِأَنَّ لَفْظَ الشَّاءِ مَذْكَرٌ وَمَوْثِقٌ، أَمَّا إِذَا كُنْتَ تَقْصِدُ الْعِزْرَ قُلْتَ: هَذِهِ شَاءَةٌ. بَلْ إِنَّ عَمَرَ ابْنَ أَبِي

ربيعة قد قال: ثلاثُ شخوصٍ. مع أن شخوصاً في أصلها مذكر. ذلك لأنه ضمَّنهما معنى المؤنث أى: ثلاثُ نسوةٍ، والمذكر يأتي معه العدد من ٣ - ٩ مؤنثاً قال عمر:
 وكان مَجَنَّى دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَقِي ثلاثُ شخوصٍ، كاعبانٍ ومُعَصِرُ
 لأنَّ الكاعبينِ والمعصرِ نسوة. فتضمنت (شخوص) معنى المؤنث. والكاعبان هما أختنا حبيبتة المعصر، اللتان رافقتاهما وعمر. عندما طلع النهار وهو لا يزال عندها، فخرجن معه يرتدين الملاءات وقد طرحن عليه ملاءةً، لكي يبدو الجميعُ نسوةً يخرجن فجراً لقضاء حاجة. وهذه القصة واردةٌ في قصيدته المشهورة التي مطلعها (علما أني أعتبر هذه الحكاية نسجَ خيالٍ شاعر):

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَايِدٍ فَمُبَكِّرُ غَدَاةَ غَدٍ أَمْ رَائِحُ فَمُهَجَّرُ^(١)
 وكما أنهم يؤنثون المذكر إذا تضمن معنى التأنيث.. فإنهم يذكرون المؤنث إذا تضمن معنى التذكير. ألا ترى أن الحطيئة قد قال:

ثلاثةٌ أنفُسٍ وثلاثُ ذُودٍ لَقَدْ جَارَ الزَّمَانُ عَلَيَّ عِيَالِي
 لأنه عنى بالأنفس أبناءه الذكور، أو ابنيه الذكركين وابنته، فذكر الثلاثة من باب التغليب، مع أن النفس لفظ مؤنث كما وردت في القرآن الكريم، إحدى وستين مرةً. ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]، فأنت النفس كما أنتها في كلِّ المرات الأخرى.

وأقول: إن الخليل يقول: «وقالوا: ثلاثةٌ أنفُسٍ. لأنَّ النفسَ عندهم إنسان. ألا تراهم يقولون: نفسٌ واحدٌ، فلا يدخلون الهاء». والله تعالى يقول: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦].

- وليس لذلك من تعليل إلا أن العرب تقول: ثلاثةٌ أنفُسٍ، عندما يضمّنون النفس معنى المذكر. كما قال الحطيئة أنفاً، وإذا قالوا: نفسٌ واحدٌ، فليس إلا لأنهم حملوها على المذكر أى: إنسانٌ واحد، كما قال الخليل.

- ألا يدلُّ هذا.. وهو أن المذكر يُعاملُ كالمؤنث إذا «ضمَّن» معناه. وأن المؤنث يُعاملُ مُعاملة المذكر إذا «ضمَّن» معناه - ألا يدلُّ على سعة اللّغة وحيويتها، وأنها لغة عقلانية يتبع اللفظ فيها المعنى؟

(١) كتبت كتاباً عن هذه القصيدة - وحَدها - وهي خمسة وسبعون بيتاً - عنوانه: [رائية ابن أبي ربيعة - في حبيبتة - نَعْم] - عَمَّان/ دار البداية - ٢٠٠٨ م.

٣ - ويقول الخليل: «وتقول: ثلاثة أشخص، وإن عَنَيْت نساء، لأنَّ الشخص اسم مذكّر، ومثل ذلك ثلاثُ أعين، وإن كانوا رجالاً، لأنَّ العين مؤنثة».

- ونقول: هذا يخالف ما تفرّز سابقاً. فالمذكّر يُعاملُ كالمؤنث، عندما يتضمّن معنى التأنيث. أما سبقُ معنا بيتُ عمر ابن أبي ربيعة الذي قال فيه: (ثلاثُ شخوصٍ) لأنه عني بالشخوص النسوة؟ والمؤنثُ يُعاملُ كالمذكّر إذا تضمّن معنى المذكر. أما سبقُ معنا بيت الحطيئة الذي يقول فيه: ثلاثة أنفسي، لأنه قصد بالأنفسي أبناءه الذكور؟

- وليس من حل لهذا الإشكال إلا أن ما قاله الخليل هو لغة لإحدى القبائل تُبقي فيها المذكر مذكراً، وإن تضمن معنى التأنيث، وتبقى فيها المؤنث مؤنثاً، وإن تضمن معنى التذكير. وأنا أرى أن القبائل التي تميل إلى تذكير المؤنث - بالعدد والفعل والصفة - إذا تضمّن معنى التذكير، وإلى تأنيث المذكر، إذا تضمن معنى التأنيث هي أقربُ إلى الصواب اللغوي، وإلى التعامل بلغة مرنة عقلانية تُقدّم المعنى على اللفظ. لأن اللفظ ليس إلا وسيلةً لأداء المعنى، لأن المعنى هو المقصود. ولكننا لا نخطئ من يستعمل هذه اللغة التي أوردتها الخليل، لأن لغات العرب كُلها حجة، كما قال ابن جني في كتابه «الخصائص»^(١). ولأن التعامل مع الكلمة على أساس معنى اللفظ أصلاً: أمدكّر هو أم مؤنث - هو وجه معتبر ... وهذا.. نوع من التوسعة التي تُقلّل الأخطاء اللغوية عند الأدباء والكتّاب الذين يكتبون وأيديهم ترتجف خوفاً الوقوع في الخطأ. إن العربية لغة سهلة قلماً يقارف الخطأ فيها من يحصّل قدرًا صالحاً من قراءة أدبها، شعراً ونثراً مع شيء من النحو.

- وأقول: إن قول الخليل السابق يحملني على أن أقول: إنه يمكن أن نحمل الكلمة على «لفظها» أو على «معناها».. فإذا حملنا «شخوصاً» مثلاً على لفظها نقول: «ثلاثة شخوص» وإن كان المقصود بالشخوص النساء، لأن لفظ «شخوص» مُذكر. أما إذا حملناها على معناها نقول: «ثلاثُ شخوص» كما قال عمرُ ابن أبي ربيعة.. إذا كان المعنى التأنيث.

- إن هذا الفهم يدعو إلى التساؤل: أنقول مثلاً: «ثلاثة موضوعات»، إذا أردنا المعنى، لأن معنى الموضوعات.. التذكير. لأن المفرد «موضوع» والموضوع مُذكر. ونقول: «ثلاثُ موضوعات» إذا أردنا اللفظ، لأن «موضوعات» لفظ مؤنث. لأنه ينتهي بالألف والتاء، وهما علامة جمع المؤنث السالم مثل: مُعلّمة ومُعلّمتٍ وسيدةٌ وسيداتٌ؟ وإن كان الجمعُ (المعلّمتُ والسيداتُ)

(١) إلا في الإعراب.. فلا يجوز للصيغة الواحدة أكثر من إعراب واحد - كما سبق القول.

هو تأنيث في اللفظ وفي المعنى معا. الجواب.. إنى أرى ذلك، أرى حمل اللفظ على المعنى وحمله على اللفظ في مثل هذا الجمع.

ومثله كلمات كثيرة منها: جرّارٌ وجرّاراتٌ واسطبلٌ واسطبلاتٌ وإطارٌ وإطاراتٌ. وجوابٌ وجواباتٌ، وعتابٌ وعتاباتٌ.. الخ.

– هذا سؤال.. أرجو أن يقول فيه المتخصصون كلمتهم، أما أنا فميال للأخذ به استنتاجا من رأى الخليل المعتمد على لهجة عربية. مع أنني لم أقرأ هذا الرأى لأحد، ولم أجد أحدا استعمل مع جمع المؤنث السالم الذى مفرده مذكّر.. العدد مذكرا، أخذا باللفظ.

٤ – ومما يدل على سعة العربية، وأنه لا يكاد يُخطئ من يكتب بها، إذا طالع قدرا صالحا من شعرها ونثرها.. المثالان التاليان (ومثلهما مئات الأمثلة):

(أ) فى مادة (عَيْن) يقول ابن منظور فى معجمة «وتصغير العين: عَيْيْنَةٌ، ومنه قيل: ذو العَيْيْنَتَيْنِ للجاسوس، ولا تَقُلْ: ذو العُؤْيُنَيْنِ». ولكنه يورد بعد ذلك قول ابن سيدة الذى يقول: «والعين الذى يُبْعَثُ ليتجسس الخبر، ويسمى ذا العَيْنَيْنِ. ويُقال: تسمية العرب ذا العينين وذا العُؤْيُنَيْنِ، كُلُّهُ، بمعنى واحد».

لاحظ أن ابن منظور يقول: ولا تقل: ذو العُؤْيُنَيْنِ ثم ينقل مباشرة قول ابن سيدة الذى يقول: «ذا العَيْنَيْنِ وذا العُؤْيُنَيْنِ». أى: إن ابن منظور يعتبر المادة يائية فَحَسْبُ، ولكن ابن سيدة يراها يائية وواية وبذلك تستطيع أن تقول: عَيْيْنَةٌ وَعُؤْيُنَةٌ، لأن الواو ناسبت الضمة التى سبقتها. هذا يعنى أن الذى يقول: عَيْيْنَةٌ مُصِيبٌ، والذى يقول: عُؤْيُنَةٌ مُصِيبٌ كذلك. ومثلها العَيْيْنَتَيْنِ والعُؤْيُنَتَيْنِ. أليس ذلك تسهيلا على الكاتب، بحيث يجرى مع ذوقه اللغويّ فى استعمال أحد الاشتقاقيين علما أن (عَيْيْنَةٌ) جاءت على الأصل اليائى. وعويئة.. جاءت لتناسب الضمة على – العين.

(ب) فى مادة (بَعْض) قال ابن منظور: «واستعمل الرّجاجيُّ بعضا بالألف واللام، فقال: وإنما قلنا: البعضُ والكُلُّ – مجازا. وعلى استعمال الجماعة له مسامحة. وهو فى الحقيقة غير جائز. يعنى أن الاسم لا ينفصل عن الإضافة.

قال أبو حاتم: قلتُ للأصمعيّ: رأيتُ فى كتاب ابن المقفّع: العلم كثير. ولكن أخذ البعض خيرا من ترك الكُلِّ. فأنكره أشدّ الانكار. وقال: الألف واللام لا يدخلان فى بعضٍ وكلِّ. لأنهما معرفة بغير ألف ولا م.

ما الذى يتحصّل معنا من هذا الكلام؟

أولاً: القول بأنهما معرفةٌ بغير الألف واللام غير مفهوم، فهما ليسا علما، ولا شبيهين بالعلم. فمن أين جاءهما التعريف؟ لا بُدُّ أنه جاءهما من الإضافة.

ثانياً: إن ابن المقفع قريب من عصور الاحتجاج، ولم يستعملهما إلا لأنّ ذوقه اللغويّ قد استساغهما. والذوق اللغويّ للادباء أدل على صحة الاستعمال من تحكّمات اللغويين.

ثالثاً: قال الزجاجي: وإنما قلنا: البعض والكُل - مجازاً. ونقول: فليكن الاستعمال مجازاً، وليبق مجازاً، لا ضير. لأنه يجوز. وإن الإضافة نوع من التعريف والألف واللام «نوع آخر من التعريف».

رابعاً: درج الكتابُ في مختلف العصور على إدخال الألف واللام على بعضٍ وكلِّ، حتى سيبويه والجاحظ... ومقاومة ذوق العصور لقول قاله لغويّ هو «كناطح صخرة يوماً ليوهنها..» أى: لا يقوى على ردِّ ما يجرى مع السليقة.

خامساً: إذن من يدخل الألف واللام على بعضٍ وكلِّ (غير) فليس بمخطيء. وإن كان الذى يستخدمهما من دون الألف واللام أفصح. وفى هذا توسعة على الناطقين بالعربية، ودلالة على أنّها لغة سهلة، إنما يُصعبها القائلون عليها بوقوفهم عند الذى قرّره القرون السابقة كأنّ اللغة ليست كائنات اجتماعياً يتطور بتطور المجتمعات! وإن كانت العربية الفصحى، فى أصولها - إلهاها.

الموضوع الثاني

اللغة العربية والتعريب (في العصر الحاضر)

مناقشة أفكار في الكتاب^(١)

هذا عنوان كتاب لأستاذنا الدكتور عبد الكريم خليفة. طبع سنة ١٩٨٧م. والحديث عن العربية والتعريب لا ينتهي. والكتاب كله - إلا قليلا - يضم أفكارا ناضجة في مجال التعريب، وقد كتب بأسلوب مشرق. وأنا أدعو القارئ إلى قراءة الكتاب للإفادة من أفكاره التي تؤمن بأن العربية قابلة للتطور بلا حدود.. ومع ذلك تحتفظ بأصالتها ولا تخرج عليها. لأنها تتطور من خلال قوانينها الصرفية والنحوية ومبادئ فقه اللغة.

وفي هذه المقالة لا أستطيع أن أعرض لمادة الكتاب كلها. بيد أن هذا لا يمنع من عرض الأفكار الجيدة والتعليق على بعض الأفكار التي تستدعي نقاشا. شأن أي كتاب ألفه بشر. فلا بد من بعض الملاحظات عليه.. هنا وهناك. أما اللغة والأسلوب فالكتاب كله معرض لها.. إلا في مواطن قليلة سنلفت انتباه القارئ إليها.

يقول المؤلف تحت عنوان (اللغة العربية أساس نهضة أمتنا ووحدةها): «اللغة أم التفكير، وما كان للمعرفة أن تأتي إلى حيز الوجود بدون اللغة. وهي في الوقت نفسه على صلة وثيقة بالحياة العاطفية للإنسان، بأحاسيسه وانفعالاته. فالإنسان لا يستخدم اللغة للتعبير عن شيء معين أو فكرة محددة [فحسب]^(٢)، بل يستعملها للتعبير عن نفسه.

لذا.. فمن الواجب ألا نأخذ بعين الاعتبار فقط الصورة التي تُصاغ عليها الأفكار، بل من الواجب أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار العلاقات التي توحد بين هذه الأفكار وبين حساسية المتكلم» ص ١٢. وهذا كلام دقيق في العلاقة بين اللغة والفكر والعواطف والأحاسيس.

ويقول تحت عنوان (وسائل تطوير اللغة العربية العلمية): «لقد ذكرنا سابقا أن اللغة العربية قد اجتازت امتحانا صعبا وتجربة قاسية لم تواجهها من قبل في حياتها، فقهرت تلك المشكلات واستطاعت أن تستوعب جميع المعاني المادية والفكرية» ص ٢١٢.

(١) كتبت سنة - ٢٠٠٠م.

(٢) الكلام الذي بين قوسين معقوفين - ل.

أقول وهذا صحيح. فلو كان أعداء العربية لا يُصمّون آذانهم لأدركوا أن اللغة التي استوعبت ما بين القرن الثاني الهجري والقرن السادس تلك الحضارات التي سبقت كالحضارة اليونانية والفارسية والهندية، وأكثر من ذلك.. أن تستوعب الفكر الجديد الذي جاء به القرآن الكريم بالدرجة الأولى والحديث النبوي الشريف بالدرجة الثانية لاقتنعوا أن لغة هذا شأنها هي لغة عصية على الانقراض، قادرة على النماء وقهر الصعوبات.

ويقول: «وقد توسّع الكوفيون في القياس، وأباحوا النسخ على القليل النادر. فلا يكادون يرون في الأساليب المروية شذوذا بل طرقا متباينة، لنا أن نتخيّر منها ما نشاء. وقد روي عن أبي عليّ الفارسيّ وتلميذه ابن جنّي: (ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب)^(١) ص ٢٢٣. والمؤلف يوافق على ذلك كله. وهذا عين الصواب. فما سمّاه البصريّون شذوذا ليس، في الحقيقة بشذوذ وإنما وصموه بذلك لكي ينفروا الناس منه، وأيضا هو قليل ولا مانع من القياس على القليل، ما دام من كلام العرب. أما ترى أن البصريين أنفسهم قد قاسوا على كلمة واحدة عندما لم يجدوا غيرها وهي (شَنوَةٌ) فجاءت النسبة منها عند العرب على (شَنَنِيٌّ) على وزن (فَعَلِيٌّ) بفتح فَتَح فِكْسِر فِيا نسبة مشددة، فقال البصريّون في (رَكُوبَةٌ وحَلُوبَةٌ).. رَكِبِيَّ وحَلَبِيَّ. أقول: ولكنهم لم يوفقوا في هذا القياس. لأن شنوَةٌ وإن كانت على وزن (فَعُولَةٌ) - بفتح الفاء - مثل ركوبة وحلوبة.. غير أن الواو حُذفت منها لأن ثمة تقاربا بين الواو وبين الهمزة. فالهمزة - توهموها - شبيهة بحرف العِلَّة، ولذلك.. حُذِف الواو وبقيت الهمزة عند النسبة وكانهم فرّوا بذلك من توالي الأمثال الذي توهموه. ومن هنا ترى أن ركوبة وحلوبة تختلف عن شنوَةٌ، إذ يجب أن يُنسب إليهما على (رَكُوبِيٌّ وحَلُوبِيٌّ) - بفتح الراء والحاء، وإثبات الواو. وإلا.. التَّبَسَّت النسبة. أي: التَّبَسَّت النسبة إلى ركوبة مع النسبة إلى (رَكِب) والتَّبَسَّت النسبة إلى حلوبة.. مع النسبة إلى (حَلَب) المدينة التي تقع في شمال سورية، والتي كانت عاصمة سيف الدولة الحمدانيّ في القرن الرابع الهجريّ. ومن المعروف أن اللغة تسعى إلى (الوضوح)، والنسبة إلى معنيين بصيغة واحدة ضدّ الوضوح.

بل أنا أرى أن وزن (فَعُولَةٌ) في غير الكلمة التي أثرت عن العرب: (شَنوَةٌ) - والنسبة لها شَنَنِيٌّ كما أسلفنا) يبقى كله عند النسبة على وزن (فَعُولِيٌّ) مثل: رَكُوبِيٌّ وحَلُوبِيٌّ اللتين سلف ذكرهما. لأن وزن (فَعِيلَةٌ) بفتح الفاء الذي قاسوا عليه (فَعُولَةٌ) عند النسبة،

(١) إلا في - الإعراب - فلا يجوز في الموضع الواحد، في التركيب الواحد إلا حركة واحدة، ويهمل

ما سواها. لسبب ذكرناه، في هوامش سابقة.

(لأن الياء والواو - كما قالوا حرفا علة، ولذلك بينهما تقارب) - وزن (فعيلة) هذا نفسه لا تأتي منه النسبة دائما على وزن (فَعَلِيٌّ) بحذف الياء التي تقع قبل اللام، مثل (ربيعة) والنسبة إليها (رَبْعِيٌّ). بل تأتي النسبة أحيانا ببقاء الياء مثل: طبيعة فالنسبة إليها طبيعِيٌّ - بإثبات الياء - ومثلها غريزة فالنسبة إليها غَرِيْزِيٌّ. ومثلها بديهة وسليقة فالنسبة إليهما بديهِيٌّ وسليقِيٌّ. هذه كلمات سُمعت عن العرب، ويمكن أن يُقاس عليها كل ما يعبر عن الأصل مثل: عقيدة فالنسبة إليها عَقِيدِيٌّ - بإثبات الياء. والذين يقيسون هذه الكلمات على (فَعَلِيٌّ) عند النسبة إنما يمدون القياس - خطأ-، في مثل هذه الحالة، فما سُمع عن العرب يجدر ألا يُعدّل عنه إلى القياس. بل يجدر أن يصبح «قاعدة» أخرى يُقاس عليها، كما قسنا (عقيدِيًّا) آنفا على الأربعة السابقة عليه التي سمعناها عن العرب لأن الكلام العربي الفصيح لا ينقاس - كما قلنا هذا، مرارا، وإنما يقاس عليه. أمّا ما ينقاس فهو كلام المولدين منذ العصر العباسي، ونحن منهم.

إنّ البصريين أخطأوا في حقّ اللّغة عندما مدّوا قياس الأغلب والأعمّ، ثم اعتبروا ما قلّ «شاذًا» لينقروا الناس منه، وما هو بشاذّ في حقيقة الأمر وإنما هو طريقة أخرى للتعبير فهو عربيّ فصيح، وهو تعبير عن أمزجة خاصّة وأذواق خاصّة. ولذلك.. فأنا أرى أنّ الكوفيّين كانوا أهدى من البصريّين وأقرب إلى طبيعة اللّغة التي لا يمكن أن تتحوّل إلى قياسات على الأعم الأغلب^(١) - لأنّ اللّغة نابعة من الوجدان بعضها يسيطر عليه العقل وبعضها يغلب فيه الوجدان العقل. ومع أنّ اللّغة العربيّة من أكثر اللّغات استقامة مع العقل والمنطق غير أنّ تأثير الوجدان في بعض الحالات لا يُنكر لقد حاول البصريون - وهم فرس في أغلبهم- أن يعدموا القليل والنادر. لأنهم ليسوا أصحاب اللّغة يتغلغل ذوقها في أعماقهم- هاشا الخليل بن أحمد الفراهيدي - العربيّ صليبة. الذي قبل القليل كما قبل الكثير.

ويقول المؤلّف في باب الاشتقاق: «فلماذا مثلا يقتصر على أتباع المذهب البصريّ في كون أصل الاشتقاق من اسم المعني لا من اسم الذات! وهذا يعني تقديم التجريد على التجسيد. وهذا.. تضادّ مع طبيعة اللّغة» ص ٢١٦.

ونقول: هذا كلام في الغاية من الصّحة؛ فتقديم المجرد على المحسوس مضادّ لطبيعة اللّغة حقًا، وليس هذا فحسب بل إنّ تقديم المجرد على المحسوس يُخالف طبيعة

(١) في كتابي: [الرؤى النحوية] بحث تفضيلي، حول أرجحية كثير من آراء الكوفيّين على آراء البصريّين

تطوّر المُجتمعات ، فالمجتمع يبدأ بتلمس المادّي المحسوس والتعامل معه وإدراكه ثم في طور متأخر ينمو عقل الإنسان فيبدأ يدرك شيئاً من المعنويّات (=المجردات) ويتعامل معها. ولهذا.. فليس اسم الذات وحده سابقاً على الاسم المعنوي (=المصدر) وإنما يسبقه الفعل كذلك. لأنّ الإنسان يفعل الأكل قبل أن يُدرك الاسم المعنويّ لهذا الفعل. أمّا حكاية أن المجرد بلا زمن وأنّ الفعل له زمن. ولذلك فالمجرد بسيط والفعل مركّب. والبسيط مُقدّم على المركّب.. فهذا منطوق «صوريّ» لا يتفق وحقائق الواقع المادّي وتطوّر الحياة، أي: هذا منطوق أرسطيّ قاصر عن تمثيل حقائق الأشياء وقد سلفت إشارة إلى موضوع الاشتقاق، في القسم السابق = الثالث.

يضاف إلى ذلك أنّ العرب لم يشتقوا من الفعل ثم المصدر واسم الذات فحسب، بل اشتقوا من أسماء الأعيان فقالوا، مثلاً من (دِرْهَم) دَرَهَمَ، ومن الجوامد فقالوا من الحجر.. تحجّر، وقالوا من (كم).. كميّة، ومن (كيف).. كفيّة، ومن الضمائر.. من (هو) هُوِيّة. ومن الحروف فقالوا عن قولهم: عن فلان عن فلان.. عَنَعَنَ وَعَنَعَنَ وراو مُعْنَعِن - بكسر العين الثانية، وحديث معنّ - بفتح العين الثانية. واشتقوا من اسم الصوت (هَشْ) - بضم فسكون - ومنه اشتقوا الفعل (هَشُّ). وقد ورد في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام عندما سأله ربه تعالى: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِبُ أُخْرَى﴾ (١٨) قَالَ لَهَا يُمُوسَى ﴿١٩﴾ [طه: ١٨ - ١٩] ومعظم الكتاب هو من هذا الطباق الرفيع.

ملاحظات على الكتاب:

ولكنّ ثمة أفكاراً قليلة تُحرّض القارئ على مناقشتها.. فلنأخذ بهذا النقاش: والله تعالى أعلم بالصواب، إنما نحن نقدّم رأياً مع دليله، ليس أكثر:

١ - ينقل المؤلف الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة عن فقه اللغة لعليّ عبد الواحد وافى فيقول وافى: «وهذه النصوص الأدبية تمثل اللغة العربية الفصحى في عنقوان اكتمالها وعظمتها، بعد أن اجتازت مراحل كثيرة من التطوّر والارتقاء.. وبعد أن تغلّبت لهجة من لهجاتها، وهي لهجة قریش، على أخواتها، واستأثرت بميادين الأدب.. شعرها وخطابتها ونثرها في مختلف القبائل العربية». ص ١٨.

وهنا نتساءل: معروف أنّ اللهجات تنشأ عن لغة أمّ تبعا لطبيعة الاتّساع والانتشار في اللغة تبعا لاتّساع الرقعة الجغرافية التي تنساح عليها اللغة. فأين اللغة الأمّ التي تولدت

عنها لهجات القبائل العربيّة؟ إيتونى بنص واحد عليها، أو أثر واحد من آثارها. أما أن نفترض - أما - لا وجود لها.. فهذا - رجم بالغيب، وافترض من دون برهان ولا دليل. ولذا.. فهو افتراض - عبثي. أنا أرى أن اللّغة الأمّ هي اللهجات السبع، وفي مقدمتها لهجة قريش، ولكن لاختلاف المواطن الجغرافية أصبحت اللّغة تتأثر بمحيطها الجغرافي والانساني، فتولدت ألفاظ جديدة قليلة وتراكيب جديدة نادرة ليست بعيدة - بعضها عن بعض بُعداً بيّناً وليست جزءاً منها، وتنحو نحواً مختلفاً بعض الاختلاف في التنغيم، مما يميّز لهجة من لهجة. ولهذا.. ظلّت تشدّهم اللّغة الأمّ التي أصبحت لهجة قريش، فإذا كتبوا شعراً أو نثراً كتبوا بها. يُساعد في ذلك المواسم التي كانت تُقام في مكة المكرمة كلّ سنة، وعلى رأسها موسم الحجّ يُرافقه موسم التجارة والموسم الثقافي.. الشعريّ والخطابيّ بالدّرجة الأولى، ولهذا نزل القرآن الكريم جُلّةً وألفاظه تماثل ألفاظ اللّغة التي أصبحت الأمّ - بل الأصح أن نقول: وألفاظ في اللّغة الأمّ تماثل ألفاظه، لأن القرآن الكريم.. قديم، واللّغة العربيّة.. حادثة. وما فيه مما يماثل اللهجات الأخرى إنما هو في أغلبه لون من القراءات النابغة من أصوات اللهجات لا من الألفاظ التي تُخالف بها اللهجات اللّغة الأمّ. فمن القراءات مثلاً: «بسم الله مجراها ومُرساها» أو «بسم الله مجريها ومُرساها» وهذا اختلاف في تنغيم الصوت، لا في الصوت ذاته، ولا في الكلمة، ولا في المعنى.

والفصحى - كما وضحنا - في القسم الأول هي «إلهامية» وليست آتية من لغة بدائية، بعد أن اجتازت مراحل كثيرة من التطور والارتقاء. وليس للقائلين بهذا، ولا دليل مادّي أو عقلي مقنع واحد، فهم يرجعون بالغيب^(١).

٢ - ويقول: «وهذا يعني أنه ليست هناك لغة أفضل من لغةٍ بحدّ ذاتها، حيثُ إنها متّصلة بالإنسان، كما بيّنا سابقاً، اتصالاً جوهريّاً، وحيثُ أن البشر يتساوون في قيمتهم الإنسانيّة، فلغاتهم متساوية أيضاً. ويطيب لي في هذا المجال أن أورد رأي ابن حزم إذ يقول: وقد توهم قوم في لغتهم أنها أفضل اللّغات، وهذا.. لا معنى له. لأنّ وجوه الفضل معروفة، وإنما هي بعمل أو اختصاص، ولا عمل للغة، ولا جاء نصّ في تفضيل لغة على أخرى. وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(١).

(١) انظر: تفصيل أن اللغة الفصحى إلهامية، في القسم الثاني.

وقال تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَتَرَفَعُهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨). فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه عليه السلام لا لغير ذلك).

«وبعد أن يُفَرِّقَ الإمام أبو محمد عليّ بن حزم بين اللّغة العربيّة من حيثُ هي لغة لا فضلَ لها على لغات الأمم الأخرى، وبين ما شرفها الله به - سبحانه وتعالى - بأن جعلها لغة القرآن^(١) - ليفهم ذلك قومه عليه السلام) نجدده يسخر من مقولة جالينوس سخريّة شديدة فيقول: (وقد غلط في ذلك جالينوس فقال: إنّ لغة اليونانيين أفضل اللغات. لأن سائر اللغات إنّما هي تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع: قال عليّ [ابن حزم] - أى: وهذا جهل شديد لأنّ كلّ سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده فى النّصاب الذى ذكره جالينوس. ولا فرق).. ص ٢١.

وأقول: قول المؤلف: «وهذا يعنى أنه ليست هناك لغة أفضل من لغة يحدّ ذاتها، حيث إنّها مُتصلة بالإنسان، كما بيّنا سابقا.. اتّصلا جوهريّا، وحيث إنّ البشر يتساوون في قيمتهم الإنسانيّة فلغاتهم متساوية أيضا». يحتاج إلى نقاش: فأنا أرى أنّ ثمة لغة أفضل من لغة، وأنّ اللغات تتفاوت. فإذا كانت اللّغة نتاجا للمجتمع، وأنها صورة لما وصل إليه من علم وفكر وسمو في الذوق والأخلاق - وهي كذلك - فإنه يستحيل أن تتساوى لغة بدائية ولغة حضاريّة. وهل يمكن أن تتساوى لغة فى أدغال إفريقيا فى الحاضر، باللّغة الانجليزية (بلّة اللّغة العربيّة) مثلا؟ إنّ ذلك ضرب من المستحيل. بل هل تتساوى لغة قوم نوح أو هود أو صالح أو شعيب - عليهم السلام - بلغة العرب الفصحى، إبان رسالة نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم؟ إنّ ذلك ضرب من المستحيل كذلك.

قد تقول: وإذا كانت لغاتهم ضعيفة فكيف استوعبت دعوات الأنبياء عليهم السلام؟ فأقول: إنّ الدين فى كل زمن وعلى لسان أيّ رسول.. مفرداته «بسيطة» فالدين - دائما - ثلاثة أقسام هي: العقيدة والعبادة والتشريع. والعقيدة لا تزيد على أنها اعتقاد بوجود الله الواحد الأحد الخالق للكون المدبّر له. ويأنّ هناك موتا وبعثا وحسابا ثم يدخل، بعد، المؤمنون الجنّة ويدخل الكافرون النّار. وأنّ هناك ملائكة أطهارا، وجنا. كل ذلك يردّ على لسان النّبيّ أيّ نبيّ وهذا يؤدى بلغة لا تزيد مفرداتها على ثلاثة آلاف كلمة.

(١) العربية الفصحى .. ليست لغة القرآن، بل هي اللغة التي يفهم بها القرآن، ويفسر بها - ويدرك إعجازه.

(انظر: القسم الرابع من هذا الكتاب - الموضوع التاسع: (أحقا أن القرآن - أنزل باللغة العربية الفصحى)؟

أما العبادة.. فهي محدودة المفردات منها الصلاة والزكاة ومنها الصوم بكيفيات يوضحها الرسول بالقول والعمل. وأما التشريع فقد كان في كل الدعوات قبل الإسلام يركّز على جانب واحد أو جوانب قليلة من أعمال البشر؛ مثلا لوط نهى قومه عن الفاحشة التي كانوا يمارسونها مع الذكران من العالمين. وشعيب نصح قومه أن يؤفوا الكيل والميزان وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم. وحتى في الإسلام فإن مبادئ التشريع محدودة، فالجانب الحدود فهناك مبادئ عامة كطلب العدل في المعاملات وكالاستخلاف في الأرض، مما يُقرّر مبدأ المصلحة العامة والخاصة. وما يبقى خاضعا للاجتهاد في ضوء مبادئ الإسلام وهى العدل والمصلحة. ثم شيء من التفصيل فى الأحوال الشخصية، الزواج والطلاق والإرث. ولهذا.. فالإسلام نفسه آخر الأديان وأكملها يفهم مفرداته العامي كما يستوعبها المثقف كما يشرع على أساسها العالم. بيد أن مبادئه - العامة المختصرة - استوعبت كل جوانب الحياة.

أعتقد أن هذه المفردات القليلة الواضحة البسيطة التي يفهمها ويستوعبها العامي.. لا يمكن أن تُفهم إلا من خلال لغة راقية؟ إن الديانات القديمة نزلت بلغات قليلة المفردات غير ثرية العبارات ليس بينها وبين الإنجليزية مجال للمقارنة (ناهيك بالعربية). يُقال بعد ذلك أن اللغات.. القديمة والحديثة كلها متساوية وغير متفاوتة؟

أما القول بأن «البشر يتساوون فى قيمتهم الإنسانية.. فلغاتهم متساوية أيضا». فليس فى تساوى قيمتهم الإنسانية أدنى دليل على تساوى اللغات. لأنّ تساوى البشر حتى فى مجتمع واحد فى القيمة الإنسانية لا يؤدى إلى تساوى فى المقدرة اللغوية.. فهناك الفصح كسحبان وائل، وهناك العيبي الذى لا ترتفع لغته على لغة (باقي).. ومثل الأفراد المجتمعات.. فهناك أمة هى أربى من أمة أخرى فى لغتها.

٣ - ويورد المؤلف رأى ابن حزم فى اللغات الذى يقول: «وقد توهم قوم فى لغتهم أنها أفضل اللغات. وهذا لا معنى له. لأنّ وجوه الفضل معروفة، وإنما هى بعمل أو اختصاص. ولا عمل للغة، ولا جاء نصّ فى تفضيل لغة على لغة».

وأقول: لقد بان لك مما ذكرناه سابقا أنّ اللغات مُتفاوتة فى كثير.. فى المفردات والتراكيب وفى قدرتها فى التعبير عن دقائق الفكر. وما حمل ابن حزم على أن يركب هذا المركب الصعب فتناسى عظمة اللغة العربية إلاّ لأنه كان يصدد الردّ على (جالينوس)

اليوناني الذي كان يرى أن اللغة اليونانية هي أفضل اللغات. والآن.. فاحتججه بأن الفضل يأتي من العمل أو الاختصاص. وأن اللغة لا عمل لها غير دقيق. لأن اللغة - أي اللغة - ذات عمل عظيم لأنها هي التي تعبر عن عمل الإنسان في الوجدان والعاطفة والمشاعر والأحاسيس والعقل كذلك. ولولاها لما استطاع الإنسان أن يخلف وراءه إلا القليل. بل إن انفعالات الإنسان وأفكاره إنما هي لغة إلى حد كبير ثم.. تصاغ باللغة.

أما قوله: «ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة» فهو غفلة عن قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّمَا كَانُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٣٠﴾﴾ [النحل: ١٠٣]. فلو كان اللسان الأعجمي - كل لسان أعجمي - بإبانة اللسان العربي لقال تعالى (وقوله الحق): «لسان الذي يلحدون إليه أعجمي.. وهذا لسان عربي» فحسب. فلما أضاف «مبين» للعربي عرفنا أن اللسان العربي أبين من اللسان الأعجمي. ومعروف أن القرآن لم يرد فيه حرف واحد. ليس له معنى. بل - ولا حركة واحدة فكيف إذا كان الوارد كلمة هي (مبين). ومن البديهي أن القرآن المعجز لا تحمله إلا لغة معجزة.

وأما قوله (ابن حزم): «قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧٠﴾﴾»^(١) مُستدلاً به على تساوي اللغات في الأداء. فليس فيه أدنى دلالة. بل لعل مما يمكن أن يمد به القول ويستقيم معه المنطق أن نقول مفسرين للكلام السابق: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم» وإن كان لسانهم غير راقٍ وغير غني بالمفردات والتراكيب. المهم أنه اللسان الوحيد الذي يستطيع الرسول أن يبين لهم دينهم به لأنهم لا يتقنون غيره. لأن مفردات الدين قليلة بسيطة (كما عرفنا سابقاً) يكفي لتبيينها أي لسان مهما كان محدود المفردات والتراكيب.

وأما استشهاد [ابن حزم] بقوله تعالى لمحمد - رسول الرحمة - صلى الله عليه وسلم: ﴿فَأَنمَأ بَشَرًا مِّن بِلْسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا ﴿١٧٠﴾﴾^(١) [مريم-٩٧]. على أن لا فرق بين الألسنة.. فليس بدقيق. لأن تعبير «يترناه بلسانك» توحى أن تيسير تعاليم الإسلام - وقد اكتملت في الرسالة الأخيرة - لم يكن ممكناً لولا أنه كان بلسانك. يا محمد. أي: باللسان العربي.

(١) وقوله تعالى: [إنا ما يسرناه بلسانك ...] يعني أن القرآن نزل (بكلام) نستطيع أن نفهمه بلسانك وتوضحه للناس. ولسانه - صلى الله عليه وسلم - هو اللغة العربية الفصحى.

لأنَّ اللسان العربيَّ أفصحُ الألسنة وأبينُّها. لقد تيسرت تلاوة القرآن المعجز، وفهم ما يؤمُّ الإنسان في حياته للاستقامة، ثم لدخول الجنة لأنه نزل باللسان العربي، ومما لا يستقيم في العقل أن ينزل المعجز بلغة غير مُعجزة الأصول والتكوين بسبب أنها إلهامية. ولا سيما أن إعجاز القرآن، إذا أُطلق، فإنما يُقصد به الإعجاز اللغوي. لأنَّ الإعجاز اللغوي تحدَّى به القرآن العربَ حتى في أقصر سورة وهي سورة (الكوثر). لأنَّ ما تنطوي عليه سورة الكوثر من إعجاز لغويٍّ إنما هو نمط لهذا الإعجاز اللغوي في كلِّ سور القرآن. أمَّا أنواع الإعجاز الأخرى كالشريعيِّ والغبيبيِّ والعلميِّ.. فإنما هي في بعض الآيات المتفرقة في القرآن.

من هذا يتبين لك أن قول ابن حزم: «فأخبر تعالى أنه لم ينزل القرآن بلغة العرب إلا ليفهم ذلك قومه - عليه السلام - لا لغير ذلك» إنما هو قول لم يدرك إشاعات اللفظ القرآني التي أوضحناها.. آتفا. أو هو قول يقوم على المغالطة للردِّ على (جالينوس).

واستدلال ابن حزم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (١١) « ليس فيه أدنى دليل على تساوي اللغات. بل هو لا يعرض لأمر اللغات من بعيد ولا قريب. وهذا.. شبيهه بقوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا نُزِرُ وَأَنْزِرُ وَوَرَزْنَا آخَرًا وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (١٥) « فأين مقام اللغة في هذا الكلام؟ ومثله استدلاله بقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ (١٦) [الشعراء]- [٩٦] « أي: لفي كتب الأولين. فماذا في هذا من دليل على تساوي اللغات؟ يقول ابن كثير في مختصر تفسيره، عن معنى هذه الآية: «وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين الماثورة عن أنبيائهم». بل أقول: أنا لا أرى مانعا من أن يكون المعنى: «وإن مبادئ هذا القرآن من عقيدة وعبادة خاصة، ومن تشريع بدرجة أدنى، لموجود في كتب الأولين، ولا سيما وقد عرفت مما أوردناه سابقا أن الديانات كلها تدعو إلى عقيدة واحدة وإلى عبادة واحدة من حيث هي موجهة إلى الله تعالى، وإن اختلفت في الشكل بين رسالة ورسالة، وإلى تشريع يتناسب وحالة القوم الذين تنزل عليهم الرسالة.

وأوغل في الضعف من كلامه السابق قوله: «وحروف الهجاء واحدة لا تفاضل بينها، ولا قبيح ولا حسن في بعضها دون بعض. وهي تلك بأعيانها في كل لغة. فبطلت هذه الدعاوى الزائفة الهجينة» أي: دعاوى جالينوس بأن اليونانية أرقى اللغات في حينها. أقول: وجالينوس على حق. نعم، أوغل في الضعف لأنَّ اللغات لا تتفاضل بالدرجة الأولى

ولا الثانية في أصوات الحروف.. وإنما تتفاضل بالدرجة الأولى بالعلاقات بين الألفاظ القائمة في التركيب. وبالدرجة الثانية بالألفاظ - كثرة أو قلة - وبالدرجة الثالثة بالأصوات ولذا.. فالفرق الضئيل بين اصوات الحروف. لأخفر من أن يؤيد دعوى عدم « تفاوت اللغات في القدرة على التعبير والتوضيح».

وإذا أردت أن تعرف أن التفاضل بالدرجة الأولى راجع إلى التركيب فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَدْعِي ۖ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] إبراهيم عليه السلام فاعل، ويعقوب عليه السلام فاعل.. لأنه معطوف على إبراهيم ونحن يمكن أن نغير التركيب على الصورة التالية: «ووصى بها إبراهيم ويعقوب بنيهما..» فهل يتساوى هذان التركيبان في المزية والفضل؟ اللهم.. لا. بل إن بينهما تباعدا كبيرا فالتركيب الأول قدم إبراهيم وأخر يعقوب - عليهما السلام- إلى ما بعد ورود المفعول به (بنيه). لأن إبراهيم أبو الأنبياء، ولأن يعقوب حفيده.. فلا يجوز أن يأتي الحفيد جنبا إلى جنب مع جدّه بل يجب أن يأتي متأخرا عنه بوضوح في التركيب حتى يشعر القارئ من إشعاعات التركيب (أو السياق) أن يعقوب ليس مساويا لجدّه إبراهيم، خاصة أن إبراهيم أبو الأنبياء، ويعقوب نبي من عرض الأنبياء أما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۗ وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوا فِيهِمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ولو كان مساويا له أو مقاربا لجاء بعده مباشرة. ومن هنا يبدو لنا قصور التركيب الثاني الذي اقترحناه عن التعبير عن المعنى المراد، قصورا واضحا. الكلمات نفسها لم تتغير وإنما تغيرت علاقاتها.. فكان من جراء ذلك تغير هائل طرأ على المعنى. أرايت لو أن القيمة للكلمات وأصواتها، حتى على مستوى الدرجة السادسة، من عشر درجات - من حيث هي كلمات مبعثرة.. أينشأ معنا هذا الفرق الهائل في المعنى بين تركيب وتركيب للكلمات نفسها؟

- ولكي تعلم قصور الإنجليزية (وسائر لغات الأرض) في التعبير عن العربية الفصحى - فترجم قول القرآن السابق إلى الإنجليزية - بنفس الترتيب - تجد أن المعنى يختلف - نقول في الإنجليزية:

(Ibraheem recommended his sons and Ya'eob) فلا يفهم منها إلا أن إبراهيم - وصى بنيه ، ووصى يعقوب . ولا يكون معنى أن إبراهيم ويعقوب . وصيا بنيهما على نفس معنى القرآن - إذا جاءت العبارة هكذا :
Ibraheem and Ya'eob recommended their sons . وهذه عبارة قاصرة ،

لأنها تساوى بين إبراهيم ويعقوب .. وهما غير متساويين - كما عرفنا .

وإذا أردت أن تعرف الفرق بين جرس الكلمات فاقراً قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّامَةُ ﴾ (عبس - ٣٣) وقوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى ﴾ [النازعات ٣٤] . فالآية الأولى وردت فيها (الصَّامَةُ) والثانية وردت فيها (الطَّامَةُ) . ولا شك أنك واجد في صوت (الصَّامَةُ) من الشُّدَّة ما لا تجده في صوت (الطَّامَةُ) مع أنهما كليهما على وزن واحد . لأنَّ في الصَّاد المُشَدَّدة والخاء المُشَدَّدة من شِدَّة الصوت ما ليس في الطاء المُشَدَّدة (على شدتها) ولا في الميم اللَّيِّنَة وإن كانت مُشَدَّدة .

ولا شك أن هذا الفرق في الشُّدَّة له انعكاس على المعنى وشعور القارئ بفارق بدرجة الهول بين اللَّفْظَتَيْنِ ، فالصَّامَةُ أشدُّ هولاً من الطَّامَةُ ، مع أن كلا منهما تعنى يوم القيامة . ولهذا وُصِفَتِ الطَّامَةُ بالكبرى ولم توصف الصَّامَةُ بذلك .. لكى يُساوِيَ معنى الطَّامَةُ مع صفتها معنى .. الصَّامَةُ .

وأنت ترى أن هذا الفرق يؤثر في معنى اللفظ وهو أقل أهمية بذلك من التأثير في معنى التركيب .

أما أصوات الحروف من حيث هي حروف فلا قيمة كبيرة لها ، وإن كانت لا تخلو من تأثير . لأننا نقول : قَلَعَ ، ونقول : بَلَغَ .. فنجد أن صوت القاف يعطى الكلمة الأولى من الشُّدَّة ما لا تعطيه الباء في الكلمة الثانية للفرق بين صوتي الحرفين . بل إن التصويت بحرف الخاء أشدُّ وأصخُّ للأذن من التصويت بحرف النون . ولكن قيمة صوت الحرف المفرد ، سواء أكان صاخاً أو ليئناً .. ضئيلة جداً ، لأنه في هذه الحالة .. لا يرتبط بمعنى . والذى يعطى الحرف قيمته إنما هو المعنى .. والحرف المفرد ليس له معنى . وبذلك .. فلا أقل من أن يكون جزءاً من كلمة ليصبح له معنى .

على هذا .. فالأهمية الكبرى للكلمة في التركيب ثم هناك أهمية دنيا للكلمة خارج التركيب . أما الصوت فلا قيمة تُذكر له وهو منفرد .

وبهذا ترى أن استدلال ابن حزم بتساوي اللغات بسبب عدم تفاضل أصوات حروفها.. إنما هو قول هجين لا عقل وراءه إنما جلبه « التعصب » الذي يُعمى عن الحق، ويصمُّ.

أما قول ابن حزم الذي يُوافقه عليه المؤلف وهو: «قد غلِط في ذلك جالينوس فقال: إن لغة اليونانيين أفضل اللغات. لأن سائر اللغات إنما هي تُشبه إما نُبَاح الكلاب أو نقيق الضفادع. قال عليّ - أي: ابن حزم - وهذا جهل شديد. لأن كلّ سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النّصاب الذي ذكره جهلا شديدا جالينوس. ولا فرق» أقول - إن قول جالينوس ليس خطأ وإنما هو حقيقة تبين لك ممّا أسلفناه، ومن خصائص اللغة اليونانية التي لا تزال جذورها ضاربة في بضع لغات حيّة والتي لا تزال مصدرا ثرا للمصطلحات العلميّة، فكثيرا ما يستعين العلماء بجذور اللغة اليونانية وما فيها من سوابق ولواحق. ولولا غناها بالمفردات وتفوقها على كثير من اللغات المعاصرة لها، بل وكثير من اللغات المعاصرة لنا لما كان لها هذه الأهمية عند العلماء. والآن.. فلماذا لا يأخذ العلماء من لغة الآشوريين ولغة البابليين المعاصرتين لها؟

أما قول ابن حزم: «الذي يوافقه عليه المؤلف وهو: (قد غلط في ذلك جالينوس فقال: إن لغة اليونانيين أفضل اللغات؛ لأن سائر اللغات إنما هي تشبه: إما نُبَاح الكلاب، أو نقيق الضفادع. قال - عليّ - أي: ابن حزم): وهذا جهل شديد؛ لأن كلّ سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهي عنده في النّصاب الذي ذكره جالينوس. ولا فرق».. فغير دقيق قول ابن حزم كذلك. أما ترى أن الإنجليز والأمريكان، وأكثرُ منهم الفرنسيون، يأكلون نصف أصوات الكلمة حتى لتبدو كنباح الكلاب حقا؟ وذلك جعل (فندريس) في كتابه (فقه اللغة) يرى أنه أصبح هناك تباعد كبير في الإنجليزيّة، وفي الفرنسيّة على الخصوص، بين صوت الكلمة ورمزها المكتوب حتى ليخشى أن يصبح النّاس في هاتين اللّغتين يُصوّتون غير ما يكتبون، ويكتبون غير ما يُصوّتون. فيحدث مع الزمن طلاق بين الصوت ورمزه الكتابي. أفترى أنّ اللغة العربيّة الفصحى التي لكل حرف فيها صوت يتطابق معه غالبا.. مثل هاتين اللّغتين، مع أنهما لغتان عالميّتان؟ الحق.. لا فأصوات كلماتها ومخارج حروفها جهيرة واضحة.

وهنا أقول: أحسبُ أن الذي حمل ابن حزم - رحمه الله تعالى - على هذا الرأي هو: أن اليونانيين القدامى - زمن أفلاطون، وأرسطو، وكانون يرون أن اليونانية هي

أبلغ اللغات، (وهم على حق، لأنها لغة مُعَرَّبَةٌ، والإعراب يزيد اللغة - أي لغة - بيانا وفصاحة، لأن حركة الإعراب تُعَبِّرُ عن معنى مضاف لمعنى الكلمة، فقرَّرَ ابن حزم (مناكفا) أن اللغات متساوية في البلاغة. وليس ذلك بصحيح - كما أوضحنا- ولو تدبَّر الأمر جيِّداً، لقال: إن اليونانية هي أبلغ اللغات القديمة، لأنها، مُعَرَّبَةٌ، دونها، أمَّا العربية الفصحى.. فهى أبلغ اللغات جميعاً- قديماً وحديثاً- لأنها اللغة الوحيدة المُعَرَّبَةٌ في زمانه (وإلى اليوم) ولأن الإعراب فيها أوسع وأشمل مما هو في اليونانية القديمة المعربة (التي أمست بائدة من الاستعمال الحيّ، في زمانه، وإلى يوم الناس هذا). وأوسع اللغات إعراباً هي - أبيعُنْها وأبلغُنْها.

٤ - العربية والإنجليزية: لقد نوَّهنا فيما سبق أن العربية متفوّقة على الإنجليزية، مع أن الإنجليزية لغة عالمية في هذا العصر. ذلك لخصائص في العربية لا يوجد مثلها على نفس المستوى في الإنجليزية. وقد يكتب في هذه الفروق كتاب من ألف صفحة. غير أن مقالة واحدة لا تتسع إلا للقليل من ذلك. وأنت واجد شيئاً من هذه المقارنة فيما سبق من أقسام هذا الكتاب. ونكتفى هنا بالإشارة السريعة إلى ثلاثة أشياء هي:

- الإملاء.

- الاشتقاق.

- الميزان الصرفي.

الإملاء: سبق أن ذكرنا أن هناك فرقاً هائلاً بين الصوت والرمز [الحرف] في الإنجليزية. ونضيف أن هناك كثيراً من الحروف التي تكتب ولا تُصَوِّت مثل: Daughter، فال (gh) لا يُلفظان أبداً. ومثلها مئات الكلمات. ونضيف كذلك أن حروف «العلة» في الإنجليزية ليس لكل منها صوت ثابت خِلافاً للعربية. ونكتفى بالتمثيل بالـ (O).. فأنت تقول (God) فتلفظها (جأد) وكأنها ألف ممدودة. وتقول (Good) ولكنك تصوتها بصوت قصير (جُد). فما هذه اللغة التي يُمَدُّ فيها (الواو) وكأنه ألف ممدودة، ويقلص فيها (الواو) المتواليان وكأنهما واو واحدة، بل وكأنهما ضمّة؟ أين هذه اللغة من اللغة العربية التي لا يختلط فيها الضمُّ (الحركة) بالواو (الحرف).. أبداً. فالصوت قصير في الضمُّ أبداً، طويل في الحرف أبداً. ومثل الضم.. الفتح والكسر كحركتين وكحرفين؟

الاشتقاق: في اللغة العربية نشقُّ من كلِّ شيءٍ، مما يجعل الاشتقاق من مزايا اللغة العربية التي لا تُدانيها به اللغة الإنجليزية قليلة الاشتقاق. العربية تشتقُّ من الفعل

مصدرا مثل: كَتَبَ ومصدرها كَتَبْتُ أو كتابة. وتشتق منه - إلى جانب المصدر - أشياء كثيرة مثل: كتاب، مكتبة، مكتب، كتيبة، كاتب، مكتوب.. الخ. ثم نشق من الفعل نفسه فعلا آخر، ونشتق من هذا الفعل الآخر عددا آخر من المشتقات. كأن نقول من (كَتَبَ): استكتب. ومنها نُؤلِّد مشتقات كما ولدنا من الفعل الثلاثي السابق.

ونشتق من اسم الذات فنقول من كلمة (الذهب) الفعل (ذَهَبَ) - بتشديد الهاء - ونشتق من (ذَهَبَ) مشتقات كثيرة. ونشتق من الاسم الجامد فنقول من (حَجَرَ): استحجر. ونشتق من هذا الفعل كثيرا من المشتقات. ونشتق من الاسم الأعجمي فنقول: (دَرَهْمُهُ) من (الدرهم). ونشتق من الضمير فنقول: (هُوَ) من الضمير (هو). ومن الحرف فنقول: عَنَّ الحديث. أي قال: عن فلان عن فلان.. ومن أسماء الأفعال، فقد اشتق من (هَشَّ) زجرا للغنم (أهشَّ) كما قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنْتَ كَوْنُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مِثْرَابٌ أُخْرِي﴾ [طه - ١٨].

وكل فعل نشقته.. نشق منه كثيرا من الكلمات. فأين اللغة الإنجليزية من هذه الغزارة الاشتقاقية في اللغة العربية؟! وقد سبق مثل هذا القول.

الميزان الصرفي: العربية تقوم على أوزان قياسية غالبا. وهذا يُسهِّل تعلم اللغة وتوليد عشرات الآلاف من الألفاظ على كل وزن. ونكتفي بمثال واحد على ذلك هو (اسم الفاعل). اسم الفاعل في العربية له وزنان فقط هما وزن (فاعل) من الفعل الثلاثي. ومما فوق الثلاثي يأتي على وزن مضارعة بإبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وكسر ما قبل آخره. مثال الثلاثي: قَرَأَ واسم الفاعل: قارئ. ومثال ما فوق الثلاثي: اجتهد. واسم الفاعل (مُجْتَهِدٌ) أي: يُضْمُ الميم وتكسر الهاء. ولا يخرج على ذلك إلا بضعة ألفاظ مثل: (مَوْسِقٌ) واسم الفاعل (موسيقار). ولكننا نقول أيضا: (مُؤَسِّقٌ) وهذا على القياس. لأن اسم الفاعل الأول يعني الصفة الثابتة، واسم الفاعل الثاني يعني الدلالة على الحدث.

وهل الإنجليزية لا تحتفظ إلا بصيغتين فقط لاسم الفاعل، بل لا تحتفظ إلا بعشر صيغ لاسم الفاعل؟! ليس هناك «وزن» لاسم الفاعل في الإنجليزية أو أوزان وإن تعددت وإنما هناك نهايات متعددة.. كل مجموعة كلمات تنتهي - اعتباريا - بعلامة لاسم الفاعل. فهي من (writer) .. (write) ومن (participant) .. (participate). ما الذي جعل علامة اسم الفاعل في الكلمة الأولى (er) وفي الكلمة الثانية (ant)؟ لا أحد يعلم،

وإنما هي قضية «اعتباطية» لا يُقاس عليها وكلمة (Pray) يصلى.. لا يأتي منها اسم فاعل - أصلا - لأن (Prayer) معناه (صلاة) وليس المصلى.. ومثل هذه الأمثلة الثلاثة.. كثير.

فهل هناك مجال للمقارنة بين قيام العربية على أوزان قياسية في صيغة اسم الفاعل وصيغ كثيرة أخرى كاسم المفعول وصيغة المبالغة (= الصفة المؤكدة) واسم الآلة واسم الزمان واسم المكان واسم المرة واسم الهيئة.. وبين خُلُو اللغة الإنجليزية من الأوزان القياسية؟ اللهم.. لا.

أرأيت أخی القارئ، بعد تناولنا المقتضب للفرق بين العربية والإنجليزية في الإملاء والاشتقاق والأوزان الصرفية.. أن العربية متفوقة بوضوح على الإنجليزية؟ ولهذا.. حُقَّ للعربية أن تكون (إلهامية) وأن تُشرفُ بفهم القرآن العظيم.

ثم.. أرأيت من كل ما سبق حول اللغات.. أن اللغات تتفاوت تفاوتاً بيّناً في مستوياتها؟ فهناك لغات فقيرة بدائية ولغات غنية حضارية؟ وأن أغنى اللغات قاطبةً إنما هي اللغة العربية الفصحى، لأنها لغة القرآن المعجز.. أنواعاً مختلفة من الإعجاز في مُقدّماتها الإعجاز اللغوي، ولا يكون إعجازٌ لغويٌّ في لغة من سائر اللغات؟ كما في اللغة العربية الفصحى اللهم إن اللغات تتفاوت وأن أرقى لغة في خصائصها إنما هذه اللغة العربية التي فضّلها الحقّ تعالى على جميع اللغات فقال - عز من قائل ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّئَلَّا يُخَدِّبُوا إِلَيْهِ أَعْجَبِيْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل - ١٠٣] فميزها بتقدمها في الإبانة على جميع اللغات.

ولكن هنا نقف في مناقشة الأفكار في هذا الكتاب. ولكننا سنستأنف الحديث في مقالة أخرى حول لغة الكتاب.

الموضوع الثالث

العربية والتعريب في العصر الحديث^(١) لغة هذا الكتاب

هذا العنوان هو عنوان كتاب لأستاذنا الدكتور عبد الكريم خليفة. وفي مقالة سابقة تحدثنا عن أفكار الكتاب، مؤلفين أحيانا ومُعاضين أحيانا أخرى. أما في هذه المقالة فسنحدث عن لغة الكتاب، ولغته لغة مُشرقة.

ولكن يُحسن أن نذكر أن الأساليب المُشرقة تتفاوت. فالأساليب المُشرقة درجات، كما أن الحلال درجات، وكما أن الحرام درجات، مثلا أسلوب الجاحظ في القديم وأسلوب طه حسين أو أسلوب الرافعي أو أسلوب المازني في العصر الحديث.. تأتي في الذروة - على تفاوت بينها- ثم تنزل الأساليب المُشرقة درجةً درجةً حتى يُخالط أدناها درجة الأساليب غير المُشرقة أو يقف على التَّخوم.

ولدى قراءة تى لهذا الكتاب تبين لي أن بعض الكلمات تدفع الباحث إلى مُناقشتها. فلنتناولها واحدة واحدة:

- ١ - يقول المؤلف: «نظرا لما نعوله من أهمية قُصوى على المعاجم» ص ٦. وأرى أن الصواب: «لما نعول عليه من أهمية قُصوى» يقول لسان العرب لابن منظور: «وقد عول به وعليه، وأعول عليه وعول. ويقال: عول عليه (فعل أمر) أي: استعن به».
- ٢ - «وقد استطاعت هذه الدراسات أن تُبين الصلة الحيوية بين اللغة، من حيث هي لغة، وبين أفكار الناس وأحاسيسهم وأعمالهم. وبعبارة أخرى، فقد استطاعت أن تبين أن اللغة ليست أداة للتعبير فقط» ص ١١.

وأرى أن (فقط) غير مستوية في موضعها. واللفظة المستوية هي (فحسب). لأن (فقط) تُستعمل مع العدد أما (فحسب) فتستعمل مع الأشياء المختلفة. نقول: اشتريت هذا الكتاب بخمسة دنانير فقط. ولكن نقول: لا أكتب القصة القصيرة فحسب، وإنما أكتب الشعر كذلك.

- ٣ - «وتظل اللغة الوسيلة الرئيسية للاتصال. ومن ثمَّ للتأثير في الإدراك بنحو تذكُر الماضي عند الفرد والجماعة ووعيتها بالحاضر، وتوقعهما وتنبؤهما بالمستقبل» ص ١٣.

(١) كتبت سنة - ٢٠٠٠م.

وأرى أن الإملاء الصحيح هو: «وتنبئُهُما» أي: تقع الهمزة على نبرة. لأنَّ (تنبئُوا) لم تأتِ وحدها غير متصلة بالضمير حتى تكتب على واو.. وإن كانت الكلمة مجرورة لأنها معطوفة على مجرور وهو (تذكر) - بكسر الراء - لأن هذه الكلمة مضاف إليه مجرور. أما المضاف فهو (نحو) المجرورة أيضا بالباء. أما عندما يقترن بها الضمير (هما) كما هي في النص.. فإن الكسرة التي حُرِّكت بها الهمزة تغلب الضمة التي حركت بها الباء السابقة على الهمزة. لأنَّ أقوى الحركات الكسرة ثم تليها الضمة ثم تليها الفتحة ثم السكون.

٤ - «اللغة العربية تتميز بعناصر أساسية في بُنيتهما الصرفية والنحوية تجعلها.. مطواعة» ص ٢٠.

وأرى أن الصواب: «تجعلها.. مطواعة» أي: يحذف التاء المربوطة. لأنَّ وزن (مفعال) يستوى فيه المُذَكَّر والمؤنث، نقول: رجل مطواع وامرأة مطواع. قال الشاعر:

رَبَّةُ الحُسْنِ ومِكْسَالُ الضحَى أَحْوَرُ المُقْلَةِ كالرِيمِ الأَعْنُ

فقال (مكسال)، ولا تتصل التاء المربوطة بوزن (مفعال) إلا.. للمبالغة كقولنا: هو رجل مَطواعة أي: مُبالغٌ في الطاعة. وعندئذ يجوز أن نقول: امرأة مطواعة. كما نقول للمبالغة: رجل علامة وامرأة علامة. والسياق هنا ليس سياق مبالغة. لماذا؟

لأنَّ موقف المؤلف العام هو أنه «ليست هناك لغة أفضل من لغة بحد ذاتها» - كما ورد هذا النص في المقالة السابقة. ص ٢٠. وإذن، لا تفاوت بين اللغات عنده. وعلى هذا فلا توصف لغة - في حين ليس من تفاوت - بأنها مطواعة وأخرى بأنها مطواع. لأننا لا نقول: رجل علامة ورجل علام ورجل عالم إلا لأنَّ العلامة هو أعلاهم في العلم يليه العلام ثم يأتي أخيرا العالم. فلولا «التفاوت» في العلم لما وُجِدَت هذه الصفات الثلاث المتفاوتة ولاكتفى بصفة واحدة هي عالم.

أما أنا فأؤمن أن بين اللغات تفاوتاً، وأن أعلى اللغات في القدرة على التعبير هي «العربية» الفصحى. حتى الإنجليزية لا تجاريها في ذلك. وقد أكدت هذا في المقالة السابقة. وقد دلت عليه بثلاثة أمثلة، ونزيد الأمر وضوحاً هنا بثلاثة أمثلة أخرى.. الأول منها سبق، ولكن نزيده هنا تفصيلاً، وهذه الأمثلة هي:

(أ) إنَّ اللغة العربية هي لغة «الاشتقاق» لا تجاريها فيه لغة أخرى: فالعربية تولد من الأصل اللغوي عشرةً مُشتقات أو أكثر. مثلاً كلمة (كَتَبَ) يشتقُّ منها: يكتب، كاتب،

مكتوب، كَتَاب - بفتح الكاف - كُتَاب - بضم الكاف، مكتبة، كُتِب، كَتَبه، مكتبة، مكتب، كَتَبه، كُتِب، كَتَب - بسكون التاء - كتابة، ثم نشقُّ من الفعل (كتب) الفعل (كاتب) والفعل (تكتب) - بتشديد التاء الثانية - والفعل (تكتب) والفعل (أكتب) والفعل (استكتب).. الخ. ثم نشقُّ من كُلِّ فعلٍ من هذه الأفعال مجموعة كبيرة من الصيغ المشتقة؛ نشقُّ منها للمعاني التي ستحدث، مما يجعلنا نقرّر بأنَّ العربية قادرة على مجاراة التطوُّر، لأنها قادرة على توليد الألفاظ واشتقاقها لكلِّ المعاني التي تستجدُّ.

فإذا نظرنا إلى اللُّغة الإنجليزيَّة المنتشرة في ثلاثة أرباع المعمورة التي يظنُّ الجاهلون بالعربية أنها تتقدّم على العربية.. وجدناها غير قادرة على مُجاراة العربية ووجدناها مقصورة الجناحين في الاشتقاق. ولكي نُوضِّح ذلك ننظر في مادّة الفعل السَّابق (كتب) وهو (wrote) فنجد أنَّ الكلمات التي تشتقُّ منه لا تزيد على أربع كلمات هي: (write) ثم (written).. ثم (writer ثم writing). وهي على التَّوالي: يكتب، مكتوب، كتابة، كاتب. فإذا بحثنا عن لفظة (مكتب) لم نجد لها من نفس المادّة وإنما هي كلمة جامدة لم تشتقُّ من فعل وهي (office) وما اشتقُّ منها لم يكن من مجال معناها، وهما كلمتان (officer) وتعنى ضابطاً ثم كلمة (official) وتعنى: موظفاً. وقد يكون بين الكلمة الأولى (مكتب)، والكلمة الثالثة «علاقة» ما.. لأنَّ الموظف يجلس على المكتب، فالعلاقة علاقة ترابط مكاني، ولكنك لا تجد مثل هذه العلاقة بين الضابط وبين المكتب.

فإذا بحثنا عن لفظ مكتبة وجدناها لفظة جامدة (=مُرتجلة) كالكلمة السابقة وهي (library)، ووجدنا من مادّتها ستة ألفاظ لا تمتُّ إلى معنى المكتبة بصلّة وإنما هي تعنى الحرية ومُشتقاتها. فإذا نظرنا في صيغة (كتاب) وجدناها تأتي من مادة أخرى جامدة هي (Book)، ولها معنى آخر هو: يرتب لعمل شيء - ما - في المستقبل. ولا يشتق منها إلا كلمتان؛ إحداهما تعنى الكُتَيْب والأخرى تعنى الاعتناء بالنظافة في المكاتب والمطاعم والمسارح..

فإذا نظرنا إلى صيغة: كَتَاب - بفتح الكاف - وهي صيغة مُبالغة من: كاتب وكُتَا - بضم الكاف - وهي اسم المكان الذي يدرس فيه الصغار، وجدنا قد اشتقُّ الاسم من الكتب والكتابة.

وهكذا ترى أنَّ الألفاظ العربية التي اشتقَّت من الفعل (كُتِب) تبلغ فيما أوردناه ثمانينَ عشرةً صيغةً، وتبلغ عند إحصاء المشتقات من الأفعال الزيدة المشتقة من الفعل

(كَتَبَ) العشرات. أما في الإنجليزية فقد توزع ما ورد من مُشتقات الفعل الثلاثي وَحَدَهُ على بضعة أبواب، وبعض هذه المشتقات لم نجد مقابلا له في الإنجليزية حتى وإن كان يرجع إلى موادَّ مختلفة.

أصحح أن لغة هذا شأنها في توليد المشتقات تساويها لغة أخرى كَرَّةُ الاشتقاق تكاد تكون عقيما في توليد المشتقات؟

(ب) إن اللغة العربية قادرة على توليد «صَيْغ» بقدر صيغ الغائبين المذكر منهما والمؤنث، وللمفرد والمثنى والجمع، مذكرا ومؤنثا. وليس كذلك اللغة الإنجليزية، بل هي «جامدة» على صيغة واحدة في المفرد والمثنى والجمع، مذكرا أو مؤنثا، مثلا.. الفعل «تكلم».. في العربية نقول: الرجل تكلم - المرأة تكلمت - الرجلان تكلما - المرأتان تكلمتا - الرجال تكلموا النساء تكلمن. أما في الإنجليزية فنقول:

- The man spoke - the woman spoke.
- The Tow men spoke.
- The Tow women spoke.
- The men spoke - The women spoke.

أما ترى أن ثمة فرقا هائلا بين لغة تجمد على صيغة واحدة للفعل = (spoke) مع المفرد والمثنى والجمع، مذكرا ومؤنثا، ولغة تأتي بتغيير على الصيغة الأصلية مع كل من المفرد والمثنى والجمع، مذكرا ومؤنثا، أي: تأتي بصيغة جديدة لكل منها؟

إن اللفظ «الصيغة» يتبع المعنى، وليس العكس، كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني في كتابه: دلائل الإعجاز. وهو على حق. ولذلك فاللغة التي تشتق صيغة لكل معنى غالبا هي، مُتقدِّمة بمراحل على اللغة التي لا تستطيع مثل هذا الاشتقاق وهما كالسيِّدة - الولود - والسيِّدة - المِقات^(١) - هل يستويان؟

(ج) إن من مقاييس رُقي اللغة قدرتها على التعبير عن المعاني الدقيقة وقدرتها على تقديم الأهم على المهم وتقديمها على ما هو تكلمة ليس أكثر. فالعربية في هذا المجال أقدر من الإنجليزية بوضوح، كما كانت أقدر في المجالين اللذين عرضنا لهما سابقا.

مثلا.. المتنبي قال:

فما ينفع الأسد الحياء من الطوى ولا تُتقى حتى تكون ضواريا

(١) المِقات - القليلة النسل.

فإذا أخذنا الشطرة الأولى.. وجدنا الشاعر قد قدّم المفعول به (الأسد) على الفاعل (الحياء)، وذلك لأنّ (الأسد) أهمُّ عنده من (الحياء) لأنه كان قد غادر سيف الدولة الحمدانيّ على أثر خلاف بينهما. وكان ينطوى في «شعوره اللاواعي» أنه لو كان قويا لما فارق سيف الدولة.. مهزوما، بل لشنّ عليه حربا ينتقم بها منه. ولهذا.. كانت القوة شيئا مهماً عند المتنبي. ولا شك أن الأسد هي أحد «تجسّد» مظاهر القوة. ولذلك كان موضعه في نفسه متقدّما، وكان في خياله بارزا. ولهذا.. كان شيئا يتفق مع حالته النفسية أن يقدّمه على الفاعل الذي يتقدّم على المفعول به في الظروف العادية.

- ولكن لو أن أولويات نفس المتنبي تغيّرت مع الأيام، أو لو أننا وجدنا للحياء في أنفسنا أهمية أكبر من أهمية الأسد، لأنّ الناس لم يعودوا يعايشون الأسود، صباح مساء، ولأنّ الحياء، كقيمة أخلاقية، قد أصبح له رصيد أكبر من الشاعر والأحاسيس في نفوس الناس - عندئذ يمكننا في العربية أن نقول نثرا: «فما ينفع الحياء الأسد من الطوى» أو: «فما ينفع الحياء من الطوى الأسد». وهذا يعني أن العربية قادرة على تغيير ترتيب الألفاظ عندما تتغيّر «أولويات» المعنى مع المحافظة على المعنى العام.

- بيد أن الإنجليزية غير قادرة على ذلك.. فالألفاظ يُضَمُّ بعضها إلى بعض بترتيب خاص لا يمكن تغييره، وإن تغيّرت أولويات المعنى! ففي شطرة المتنبي السابقة يأتي الترتيب هكذا، في الإنجليزية:

The shame does not benefit the lions from hunger.

ولا يمكن تغيير هذا الترتيب، مهما تغيّرت أولويات المعنى في النفس. إلا.. إذا انتقلنا إلى المبني للمجهول. ولكن هذا باب آخر غير باب المبني للمعلوم.

- أفليست اللغة التي «تجمّد» على ترتيب واحد للألفاظ مهما تغيّرت أولويات المعنى في النفس هي أدنى بكثير من اللغة التي تلبس لكلّ حالة لبوسها.. التي تستطيع أن تُعبر عن دقائق المعنى، وأدقّ خلجات النفوس؟ - هي أدنى - حقا - واللغة المتموجة التركيب - لتموجات النفس - هي أعلى حقا؟

ه - بعد هذه الجولة نعود إلى المناقشة اللغوية:

يقول المؤلف: «وما لبثت موجة الاستعمار الأوروبي أن بدأت تهب عاتية تثير حملاتها الصليبية من جديد، مستخدمة الوسائل إيها من قوى عسكرية ضخمة..: ص ٣٧.

وأنا أرى أن الصواب هو: «مستخدمة الوسائل نفسها» بدل: إيّاها. لأن التوكيد لا يقع بضمير النصب (إيّاها) أو غيره من ضمائر النصب، فليس ضمير النصب من التوكيد.. المعنوي^(١). أما كلمة (نفسها) فهي أحد أسماء التوكيد المعنوي. ومثلها: العين وجميع وعامة وكلا وكلتا وكل. إن (إيّاها) ومثيلاتها من ضمائر، لا تقع إلا مفعولا به. كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ تَبَدُّوْاْ وَيَاكَ تَسْتَعِيْبُ﴾ ﴿الفاتحة: ٥﴾ [و(إيّاها) لا تختلف عن (إياك)].

٦ - «فطرحت قضية تدريس العلوم باللغة الإنجليزية، والاتكاء على الاستثناء.. مُتَذَرِّعِينَ - بشتى الذرائع - «ص ١١٨.

وأنا أرى أن «شتى» لا تأتي مضافا. وإن كنا نسكت عليها، مضافةً، عند المبتدئين. لقد وردت في القرآن ثلاث مرّات: في الأولى كانت صفةً وهي: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ ﴿٥٣﴾ [طه: ٥٣]. وهي هنا.. صفة لـ (نبات). وفي الثانية

كانت خبرا وهي: ﴿لَا يَقْنَلُوكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بِيْنَهُمْ شَدِيدٌ مَّحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٧﴾ [الحشر: ١٤] والموصوفون هم اليهود. وهي خبر لـ «قلوب». وفي الثالثة كانت خبرا لـ (إن)، واللام الذي اتصل بها هو لام التوكيد، وهي: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ ﴿٤﴾ [الليل: ٤]. وإن كان قد كثر استعمالها كمضاف، حتى صار التسامح معها بهذه الصورة.. أمرا مقبولا.. يمكن أن يمرر.

٧ - «هذا كله يستلزم عملية - دؤوبة - هادفة» ص ١٩٢.

وأرى أن الصواب «عملية دؤوبا» أي: بحذف التاء المربوطة، لأن الصفة التي على وزن (فَعُول) وتكون بمعنى اسم الفاعل (وليس اسم مفعول) يستوى فيها المذكر والمؤنث. لأن دؤوبا بمعنى (دائب). ومثلها (صبور). نقول: رجل صبور وامرأة صبور. لأنها بمعنى صابر. أما لماذا يستوى فيها المذكر والمؤنث؟ فإن السبب هو أنه «عُدل» بها عن اسم الفاعل إلى وزن (فَعُول). والتسوية بين المذكر والمؤنث، جاءت بسبب العدل. لأن العدل يُطرى تغييرا على الحروف أو الحركات، أما ترى أن اسم (عَمَم) مُنْعَم من الصرف، لأنه عدل به عن (عاص)؟

٨ - «وظالما - نحن بصدد الحديث عن (النصوص) العلمية: القديم منها والحديث..

نجد من الواجب أن نشير إلى قضية فرعية» ص ١٩٦.

(١) سميته في كتابي: [الرؤى النحوية] - التوكيد بألفاظ معلومة - ١٨٠/٣ - لأن كلمة المعنوي التي اصطلح عليها النحاة.. ليست تعبيراً دقيقاً عن هذا اللون من التوكيد بالألفاظ: نفس - عين - كل - كلا - كلتا.

وأرى أن (طلما) لم تقع موقعها. لأنها بمعنى (ما أطول) وليست بمعنى «التعليل». نقول «طلما قرأنا في كتب اللغة، إذ كان بدءُ اطلاعنا عليها قبل خمسة وأربعين عاما». أي: ما أطول ما قرأنا. أو لقد قرأنا طويلا في كتب اللغة. والسِّيَاق الذى وردت فيه هنا سياق تعليل. أي: - ولأننا - كنا بصدد الحديث عن النصوص العلمية .. فهنا كلمة التعليل التى تصحّ هى (ولأننا).

٩ - «و - سوف لا - أقف عند اللغة الأدبية، ولا أخشى على وحدتها.. إذ أن النصّ القرآنى كقيل أبدئي بتوحيد اللغة الأدبية» ص ٢١٠.

وأنا أرى أن قولنا: «ولن أقف..» أولى من قول المؤلف: «وسوف لا». لأن (لن) وحدها تُغنى عنه. ولا شك أن البلاغة فى «الإيجاز» فإذا كانت لفظة تغنى غناء تاما عن لفظتين كان استعمالها أولى. يدلّك على ذلك أن الحقّ تعالى قال: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنَىءَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢]. إبراهيم - عليه السلام - فاعل. ويعقوب - عليه السلام - فاعل. فلماذا لم يتوال الفاعلان، وإنما قدّم إبراهيم وأخر يعقوب إلى ما بعد المفعول به؟ لقد وضحنا جواب هذا السؤال فى المقالة السابقة.

وجوابه هناك يعنى أنه يجب علينا أن نختار دائما العبارة الموجزة على العبارة الطويلة، والكلمة الواحدة على الكلمتين، إذا كان هذا الإيجاز يؤدى المعنى المقصود، وعلى هذا.. فنحن نُقدّم «لن» على «سوف لا» لأنها على إيجازها تؤدى المعنى الذى تؤدّيه عبارة «سوف لا» تمام الأداء. إن «لن» تعنى نفى المستقبل، وإن «سوف لا» لا تزيد على أنها تعنى نفى المستقبل، فأيهما نستعمل، إذن، مع الفعل المضارع لنقلبه إلى النفى والاستقبال؟ أحسب أن (لن) هى الأولى، إن لم تكون هى الواجب استعمالها، دون غيرها من الصيغ.

١٠ - «فإن وضع الكلمات الحديثة فى اللغة يجرى بصورة - رئيسة - إما على طريقة الاشتقاق، وإما على طريقة التعريب. وقد يُجمع بينهما» ص ٢٢٦.

وأنا أرى أن الصواب «رئيسية» بإثبات ياء النسبة. أي: «صورة رئيسية». لأنه لا يوصف بالرئيس أو الرئيسة - دون ياء النسبة إلا الإنسان والحيوان، نقول: رئيس مكتب ارتباط الجامعة أو - فى التأنيث - رئيسة مكتب ارتباط الجامعة. لأن كلاً منهما

يرأس المكتب حقًا. ونقول: كلب رئيس، ونعجة رئيسة. لأنّ الكلب يقود الكلاب ويرأسها إلى حدّ ما، ولذا يمكن أن نُشبه رئاسته برئاسة الإنسان فهو رئيس من باب - المجاز - .. ولأنّ النعجة تشبه الكلب في رئاستها للنعاج، إذ يوضع في عنقها جرس فتتقدّم هي النعاج.. فتكون رئيسة إلى حدّ ما «بحيث تُشبه رئاستها برئاسة المرأة فهي رئيسة من باب المجاز كذلك. وهذا يُسوِّغ.. بأن يوصف الكلب بالرئيس والنعجة بالرئيسة.

أما المعنويّات والجمادات.. فلا توصف بالرئاسة.. برئيس للمذكّر وبرئيسة للمؤنث. لأنّ المعنويّات والجمادات.. لا ترأس غيرها لا على الأصلة كالإنسان، ذكرا أو أنثى، ولا على الشّبه بالحيوان، ذكرا وأنثى، فالصورة - مثلا - التي نُعتت في النّص (بصورة رئيسة)، لا ترأس سائر الصور. والفكرة، مثلا لا ترأس الفِكر الأخرى. والنهر، مثلا، لا يرأس سائر الأنهار مهما كان ماؤه عظيما، والسيارة الفارحة، مثلا، لا ترأس سائر السيارات الصغيرة.. أبدا.

وإذن، فالنهر ليس رئيسا والسيارة ليست رئيسة، وإنّ كانا عظيمين. فغاية ما يُتعلّق به أنهما رئيسيان. أي: منسوبان إلى الرئاسة المتخيّلة، وليس الرئاسة الحقيقيّة كما يكون مع الإنسان، ثم بدرجة أقلّ مع الحيوان.

ولهذا نقول: نهر رئيسيّ، منسوب إلى الرئاسة المتخيّلة، وسيارة رئيسيّة، منسوبة إلى الرئاسة المتخيّلة، ولا نعتنهما دون ورود ياء النّسبة معهما.

بل إنّ الإنسان نفسه لا يُنعت بأنه رئيس أو رئيسة إلاّ إذا كان رئيسا أو رئيسة لجماعة من النّاس حقًا، وإلاّ وصف الرجل بأنه رئيسيّ، بإيراد ياء النّسبة، ووصفت المرأة بأنها رئيسيّة، بإيراد ياء النّسبة كذلك، ولذلك.. نقول: زيد رئيسُ حزب النهضة، أمّا زيد فعضو رئيسيّ في الحزب، بإيراد ياء النّسبة، ننسبه إلى الرّئاسة نسبةً ليس غير، لأنّه مهمّ، فهو الشّخص الثّاني أو الثّالث في الحزب، ونقول: سلمى رئيسةُ اتّحاد المرأة، أمّا سعاد فعضوة رئيسيّة فيه، بإيراد ياء النّسبة، ننسبها إلى الرّئاسة نسبةً ليس غير. لأنّها العضوة الثّانية أو الثّالثة في الاتّحاد أمّا إذا قلنا: (زيد عضو رئيس) فلا يفهم منها أنه رئيس وعضو في الوقت نفسه. ومثله (سعاد عضوة رئيسة). وهذا.. تعبير خاطئ.

إذن، لا يوصف بالرئاسة، بدون ياء النّسبة، إلاّ من كان رئيسا أو رئيسة..«حقًا. أو فيه مُشابهه من عمل الرّئيس كما في الحيوان. أمّا المعنويّات والجمادات.. فتنسب نسبةً إلى

الرئيس أو الرئيسة، عن طريق ياء النسبة. وإذن، قُلْ: «صورة رئيسية» بإيراد ياء النسبة ليس غير.

وبعدُ: فهذه مجموعة من الأخطاء اللغوية بلغت عَشْرَ كلمات. وهي لا تضير كتاباً يقع فيما يقرب من ثلاثمائة صفحة. «وكفى المرء نبلاً أن تُعدَّ معايبه». وتصويبي لها هو اجتهادات في اللغة.. موجهةً إلى الكتاب وإلى أبنائنا الشباب ليتحرّوا عندما يكتبون ويتجنّبوا الخطأ ما أمكن، عن طريق جعل أحد المعاجم «الرئيسية» - بإثبات ياء النسبة - رفيق الكاتب والشّادى في الكتابة. والله الموفق.

الموضوع الرابع

الفصحى والحضارة وجريدة الرأى

سعدتُ بقرار جريدة الرأى السائرة، بأنها لن تقبل إعلانات إلا باللغة الفصحى أو الفصيحة. وهذه خطوة جريئة وموقفة، تدل على انتماء القائمين عليها إلى لغتهم وحضارتهم التي امتدت ستة عشر قرناً ولا تزال تعطي ثماراً يانعة، ولا سيما في مجال اللغة المعبرة عن الأفكار والعواطف.

وهذه المقالة بمثابة شكر جزيل للقائمين على جريدة الرأى، ودعم لهذا الموقف الشجاع، ومساهمة في إبراز ما فى الفصحى من مقومات الحياة التي تجعلها قادرة على مواكبة الحضارة، فهي لغة الاشتقاق الذي لا ينضب معينه على الدهر. لقد اشتق العرب من كل الكلمات، مصادر وجواهر وأفعالا وأسماء جامدة. كما عرفنا توضيح ذلك فى القسم الثالث، من هذا الكتاب.

لقد ضمتنى جلسة مع مجموعة من أصحاب الرأى، وجرى الحديث حول الفصحى والعاميات ومدى استيعاب الفصحى للحضارة المعاصرة. فذكر أحدهم أن اللغة العربية صعبة، بدليل أن المتخصصين فيها يلحنون، على حين يذهب الطلاب من عندنا إلى الغرب، ولا يقضون إلا بضعة سنوات ثم يعودون يتكلمون اللغة الإنجليزية من دون أن يلحنوا. فأجاب الدكتور محمود السمره بأن ما تقوله ليس دقيقاً؛ فالذين يعودون من الغرب هم يلحنون كثيراً، ولكن من يقوم لحنهم؟ وأنا أقول: إن المتكلم فى العربية عندنا يجد من يقومه من كبار المتخصصين، ولكن المتكلم باللغة الإنجليزية لا يجد مثل هؤلاء ليكشفوا عوارضه!

وأقول: الحقيقة أن الصعوبة فى اللغة العربية لا تزيد على الصعوبة فى اللغة الإنجليزية، وإن كانت لغتنا معربة واللغة الإنجليزية غير معربة. والإعراب - كما أرى - يسهل اللغة ولا يصعبها، لأن التركيب فى اللغة المعربة مرن - أما التركيب فى اللغة غير معربة فجامد. لأنها تحل المشكلة فى المعنى (التي تحلها اللغة المعربة بالحركات) - تحلها بإضافة كلمات إلى التركيب، فالمضارع الكامل المستمر فى اللغة الإنجليزية، مثلاً، تؤديه

إضافة كلمة (has - أو - have)، ثم كلمة (been)، وليس من شيء من هذه الإضافات في اللغة العربية، فكلُّ كلمة في اللغة العربية، في التركيب لها معناها. نقول:

I have been working for three years

ومعناها: أنا مستمّر في العمل لثلاث سنوات، فأين معنى (Have)، ومعنى (Been) سوى الدلالة على الزمن وأنّ الفعل قد تمّ؟ وقد أسلفنا في الموضوع أن لغتنا العربية أدقّ المعاني، وأن غيرها من اللغات الجامدة على - ترتيب - واحد - غالبا - لا تستطيع أن تعبر عن أدقّ المعاني إلا بتطويل العبارة، وقد ضربنا على ذلك، مثلا، هناك.

وهذا.. يرُدُّ على الدكتور سعيد التلّ الذي قال: إنّ هناك لغاتٍ قديمةً كانت مُعربةً، ولكنّها مع الزمن فقدت الإعراب، راويا ذلك عن أحد المحاضرين واللغة العربية ستنتهي إلى هذه النهاية. روى ذلك مؤمنا بهذا القول. ويرُدُّ عليه.. أنّ الإعراب ميزةٌ للغة كما ذكرنا آنفا. وأنّ هذا المحاضر لا يُكِنّ ولاءً للقرآن الكريم ولا القومية العربية، وإلا.. لما رأى أنّ العربية المُعربة؛ لغة القرآن والعرب كافةً، ستؤول إلى مآل اللغات المنقرضة. وكيف تنقرض والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّا مَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر: ٩]، ولا ريب أنّ حفظ الذكر هو حفظ اللغة العربية حيّة معربة وهو إحدى وسائل حفظ القرآن الكريم. ولا ريب أنّ كتابة العلماء المؤمنين في كلِّ عصر، في هذه اللغة العربية، ودفاعهم المشرف عنها.. هما من أسباب بقائها على العصور. وهم يهتمّون بها بالدرجة الأولى، لأنها لغة القرآن، أولا، والحديث النبوي، ثانيا، واللغة القومية ثالثا.

وعندما ردّدت على هذا الرجل، وقلت له: وماذا نفعل بالقرآن الكريم بعد تخلّي الفصيحة عن الإعراب؟.. قال: القرآن يبقى على إعرابه وعلى خطّه (رسمه) لا يمسه أحد بسوء.

وهذا قولٌ من غيبِلَ دماغُهُ، في معاهد الغرب، من عقيدة الإيمان بالقرآن والولاء له. لأنّ المسلمين لا يريدون القرآن كتابا يُحفظ داخل جلدة فاخرة، ويُعرض في أفخم المعارض؛ لا يريدونه كالإلياذة والأودسة، بعد أن انقرضت اللغة اليونانية المعربة التي كتبنا بها.. لا يريدونه بلغة منقرضة يتخصّص فيها من كلِّ مئة ألف شخص.. شخص واحد، كما يجرى التخصّص في اليونانية القديمة الآن. إنهم يريدون القرآن أن يظلّ كتابا بلغة حيّة، يسمعه العامي من المذيع أو التلفاز أو القاري، في المسجد، أو من أيّ وسيلة أخرى موجودة

الآن - كالانترنت - أو يأتي بها المستقبل.. فيتأثر به ويخشع له ويزداد إيماناً. لأن اللغة العربية مفهومة، في البلاد العربية، حتى لدى العوام. أما ترى أن نشرة الأخبار تُداع بالغة العربية، في أي قطر عربي، فيفهما العربي في أي قطر آخر من المحيط إلى الخليج؟ وكذلك يسمع القرآن أو يقرأه المثقف ثقافة متوسطة، فيفهم كثيراً من معانيه ويتأثر ويخشع ويزداد إيماناً. ويسمعه أو يقرأه العالم فيتأثر ويخشع ويزداد إيماناً، ويضيف إلى ذلك قدرة على تفسيره وتوضيحه للناس، والكشف عن بعض جوانب الإعجاز فيه، لغوية وفكرية.

إن القرآن كتاب حياة، كتاب الإنسانية كافة: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِم مَّرَّجُوا فَكَلِمَاتٌ يَسْمَعُنَّ لَسَانَكُ أَتَى السَّمْعَ أَكْثَرَ حَيْثُ هُوَ إِلَّا ذِكْرًا لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام: ٩٠].

ولذلك.. يجب أن يظل بلغة حية يقرأها مئات الملايين من العرب خاصة، ومن المسلمين عامة، وتسهل ترجمة معانية إلى مليارات البشر. بل هو مكتوب بأعظم اللغات حياة، فلا يُعقل أن يُنزل كتاب معجز بلغة غير قادرة على حمل هذا الإعجاز وتقديمه للناس كافة. وهي لا تزال لغة قوية على الرغم من ضعف أهلها، في هذا الزمان وهذا... ليس للغة غير العربية التي « ألهمها » الله تعالى العرب، - إلهاماً.

قال حافظ إبراهيم على لسان الفصحى:

وسعت كتاب الله، لفظاً وغايةً
فكيف أضيقت اليوم عن وصف آله
وما ضقت عن آي به وعظمت
وتنسيق أسماء لمخترعات

والى جانب القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، اللذين كتبوا باللغة العربية: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ « [يوسف: ٢] أى: مُنَزَّلُ بِلِغَامِ يَمَانِلِهِ كِلَامِ بِالْعَرَبِيَّةِ الْفُصْحَى - فَإِنَّ التَّرَاثَ الْعَظِيمَ، فِي جُلِّهِ، قَدْ كُتِبَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ. وَتَرَاثُ الْأُمَّةِ جِزْءٌ مِنْ كِيَانِهَا. وَلِذَلِكَ.. فَإِنَّ الَّذِي عَصَمْنَا مِنْ أَنْ نَذُوبَ فِي الْمُسْتَعْمَرِ وَفِي الْحَضَارَةِ الْغَرِبِيَّةِ الْإِنْحِلَالِيَّةِ الْغَازِيَةِ.. إِنَّمَا هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَالْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ، ثُمَّ التَّرَاثُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَمْتَدُّ عَلَى مَدَى سِتَّةِ عَشَرَ قَرْنًا. بَلْ هَذِهِ الْمَصَادِرُ الثَّلَاثَةُ.. هِيَ الَّتِي سَتَحْمِينَا، عَرَبًا وَمُسْلِمِينَ، مِنَ الْإِنْضَوَاءِ تَحْتَ عَقِيدَةِ الْعَوْلَةِ الْحَدِيثَةِ وَالذُّوبَانِ فِيهَا. إِنَّ الْعَوْلَةَ هِيَ عَقِيدَةُ الْغَرْبِ (أَيْدِيُولُوجِيَّةُ) الْمُنْحَرَفَةِ الْمُنْحَلَّةِ.. مُحَوَّلَةً إِلَى سُلُوكِ ثِقَافِيٍّ وَسِيَاسِيٍّ وَأَقْتِصَادِيٍّ وَاجْتِمَاعِيٍّ، أَوْ مُنْبَثَّةً فِي هَذِهِ الْأَنْوَاعِ الْأَرْبَعَةِ.. غَازِيَةً الشُّعُوبَ وَالْقَوْمِيَّاتِ وَالْعَقَائِدَ الْأُخْرَى، مُحَاوِلَةً إِزَاحَةَ عَقَائِدِهَا وَثِقَافَاتِهَا وَالْحُلُولَ مَحَلِّهَا.

لعلك ترى عِظَمَ الخسارة التي يُعنى بها العرب خاصةً والمسلمون عامةً، لو أُزِيحت اللُغة العربية الفصيحة من الطريق. إنهم سيخسرون هذا التُّراث العظيم الصالح للحياة في معظمه الذي يحفظ عليهم هُويتهم وكيانهم ومقومات وجودهم، لأنه مُنبثق عن المصدرين الرئيسيَّين في الدين الإسلامي؛ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. - القرآن الكريم .. المنعس في الزمان والمكان - والمستعلى عليَّ الزمان والمكان.

وقد أثار آخراً أن العامية ستحل محلَّ الفُصحى مع الأيام، فنقول له: إن في العامية، سواءً أكانت هذه أم تلك، من الصعوبة مثل ما في اللُغة الفُصحى. لأنَّ العامية، إذا أُريد لها أن تكون لغة المعارف والعلوم، إضافةً إلى كونها لغةً المجتمع، لا بُدَّ من أن «تُثبَّت» بحيثُ يفهم الجيلُ اللاحق ما ينتجه الجيل السابق. وبغير التثبيت سيصبح لكلِّ جيلٍ لغته العامية. لأنَّ العامية لا تُثبَّت على حال، لأنها غير مُقنَّنة بقواعد تضبطها، أما ترى أن المُسنِّين الذين جاوزوا الثمانين يتحدَّثون بلهجةٍ تتفاوت كثيراً عن لهجة أبناء العشرين؟ وتثبيت لهجة يعنى وضع معاجم لها تحفظ كلماتها وكتب نحو تحفظ أنماط التراكيب فيها، وكتب صرف تحفظ تقليات بنية الكلمة - فيكون في تعلم هذه العلوم من الصعوبة ما نجده اليوم في معاجم الفُصحى ونحوها وصرُفها! أما كانت الفُصحى في الجاهلية لهجةً (أو لهجات متقاربة) يتكلَّمها النَّاس بلا صعوبة، ولكن عندما اختلط الأُجانب بالعرب، واحتاجوا إلى تدوين العلوم، وجدوا أنَّ هذه اللهجة يطرأ عليها تغيير أي: يقع اللحن فيها من بعض المتكلِّمين فرأى العلماء أنَّها إذا أُريد لها أن تُثبَّت، فتصبح لغة العلوم والمعارف التي تنتقل من جيل إلى جيل، دون تغيير يُذكر، وتحفظ القرآن كما نزل من عند ربِّه.. فلا بدَّ من وضع معاجم لها، ومن وضع كتب نحو وصرف تحفظ أنماط التراكيب من التغيير، وتقليبات بنية الكلمة من الانحراف. وهكذا.. كان- طبعاً.. هذا لا يعنى أن العربية الآن ذات صعوبة عالية، ولكننا أشرنا للصعوبة - قبلُ - لكي نُقرر أن الصعوبة التي نجدها في تعلم الفُصحى - الآن - سنجدها مثله في العامية لو عتمدت - لغةً.

ومما يُستدلُّ به على ذلك أنَّ اللُّهجات التي انبثقت عن اليونانية، كالإيطالية، والفرنسية. عندما أصبحت لغاتٍ مستقلةً، وصارت لغات المعارف والعلوم.. وُضِع لها معاجم، ووضِع لها كتب نحو وصرف.. وأصبح تعلمها لا يقلُّ صعوبة عن تعلم اليونانية نفسها، وخاصةً لغير أبنائها.

والى جانب ذلك.. فإنَّ اللّهِجَةَ، أيَّ لهجة، أقلُّ مفردات قلة واضحة، من اللّغة العربيّة الفصحى. ففي العربيّة اثنتا عشرة ألف مادة (١٢) ألفا - كما ورد في مُعجم لسان العرب

- فإذا اشتقُّ من كل مادة عَشْرُ مفرداتٍ فقط كان في الفصحى مئة ألفٍ وعشرون ألفَ مفردةٍ. (١٢٠) ألفا على حين لا تحتوى العاميّة أكثرَ من ثلاثين ألفَ مُفردةٍ، في أحسن حالاتها، لأنها ليست لغة الفكر والعلوم لتنمو مع الأيام، وإنما هي لغة الحاجات اليوميّة المحدودة. ولا شك أن كثرة المُفردات من الجوانب التي يُقاس بها غنى اللّغة، لأن كثرة المفردات تساعد على استيعاب الأسماء المستجدة في الحضارة، سواءً في العلوم أو المخترعات وعلى استيعاب الأفكار الجديدة. وعلى هذا.. يتضح أننا سننزعز عن العالم، لو أصيب العالم العربي بالدُّوار والعقم وأحلَّ اللهجة محلَّ اللّغة الفصحى، بل لو أحلَّ «اللهجات» محلَّ الفصحى.

والحقيقة أنَّ العربيّة الفصحى بخير، وأنها سائرة نحو التقدُّم والنُّمو، على خلاف ما يراه المتشائمون، فنحن نسمعها من المذياع والتلفاز، في نشرات الأخبار، وفي بعض المسلسلات، ويفهمها - منّا - معظم فئات الشعوب العربيّة. صحيح أن العاميّة مسموعة في هذين الجهازين، ولكنَّ وجودها فيهما لا يُلغى الفصحى، كما أن سماع الإنجليزيّة منهما لا يلغى الفصحى. كلُّ لها وجودها الذي لا يلغى وجود الأخرى. وهذا لا يعنى أننا لا ندعو بشدة إلى تقليص العاميّة في الإذاعة والتلفاز، وإحلال الفصحى محلّها. نحن ندعو إلى ذلك بإلحاح ولكن - يكفي تقليص ساعات العامية، فليس من لغة ليس لها فصحي، وعامية «يُفضّل أن تكون قريبة من الفصحى وهذا يكون مع نموّ التعليم، وتقدم الحضارة. ثم نحن نقرأ الفصحى في الجرائد والمجلات، كلُّ يوم، وفي الكتب والمطبوعات الأخرى، مما يُسهّل سيرورتها بين النَّاس، ويُساعد على انتشارها وعلى نموّها نموّاً من الداخل بالدرجة الأولى. مئات الجرائد تصدر بها كل يوم، وآلاف المجلات، كل شهر ومئات الآلاف من الكتب، كل سنة. وإن لغة.. هذا شأنها - إضافة إلى الخصائص الأخرى - التي أسلفنا ذكرها، خلال ما مضى من هذا الكتاب - هي لغة مؤهلة للاستمرار، والبقاء والخلود.

ثم نحن نسمع ما يسمّى اللّغة الثالّثة، في المحاضرات والندوات والمدارس والجامعات.. الخ واللّغة الثالّثة هذه.. هي محاولة للاقتراب من الفصحى في المفردات والتراكيب

(من - الفُصحى التى تُقرأ فى الصُحف والمجلات،) وللابتعاد عن العامية، شيئاً فشيئاً، حتى يأتى يوم تحوى فيه هذه اللغة الثلاثة معظم مُفردات الفُصحى وتراكيبها، وتُصبح وسيلة لتسهيل تُعلم الفُصحى على العربى الذى تقترب لهجته (اللغة الثالثة) من الفُصحى اقتراباً شديداً وهذه اللغة الثالثة.. تُضحى هى العامية - اللصيقة بالفصحى. شأن اللغات الحية المتحضرة.. كالإنجليزية.

إنَّ عامَّة النَّاس لا يفرِّقون بين الفُصحى - اليوميَّة - فى التلفاز والمذياع والجريدة والكتاب التى هى لغة العرب كافَّةً، إذ يفهمها كل العرب، وبين الفُصحى الأدبيَّة التى تضمُّ الشعر والمقالة الأدبيَّة والقصة والرَّواية والخاطرة الأدبيَّة. فهذا مستوى من اللُّغة مكثَّف، فيه المجاز والتأثُّق فى العبارة.. مما يجعل فهمه والاستمتاع به يتطلب جُهداً خاصاً وثقافةً عاليةً. وهذا المستوى يقرأه ويُعنى به المُثَقَّفون والعلماء، وليس عامَّةُ الناس. إنَّ اللُّغة الفُصحى سائرةٌ منتشرةٌ، وهى التى تحفظ لنا قرآننا حياً، دستوراً لحياتنا، وتحفظ لنا عروبتنا المتجذرة فى التاريخ. وتحفظ كذلك الحديث النبويَّ الشريف، وتحفظ لنا صلتنا حيَّةً قويةً، بتراثنا العظيم الصالح للحياة فى معظمه. وهى القادرة - إذا أخلص أبناؤها لها - على استيعاب الحضارة المعاصرة، كما استوعبت حضارة اليونان فى القديم، عندما كان العرب المسلمون سادة المعمورة^(١)، والله تعالى المستعان.

(١) ليس العملية من استيعاب الحضارة والعلم.. استيعاب المصطلحات العلمية، فى كل مجال، لأن الحضارة تجود كل يوم بمصطلحات جديدة، تعجز أى لغة عن استيعابها. وليس من اكتمال شخصية اللغة استيعابها، لأن اللغة المعتبرة - كعامل مهم من عوامل - ترابط الأمة الواحدة، وأحياناً.. أصحاب الفكر الواحد - هى لغة الفكر والثقافة والأدب.

الموضوع الخامس

الخطأ والصواب والاجتهاد في اللغة^(١)

قرأت حديثاً مقالة تحاول أن تُبيِّنَ وجه الصواب في الكتابة في اللغة. وقد وجدت - من وجهة نظري - أن معظم ما قالته يمكن دحضه وأن كاتبها وهو - الدكتور مصطفى الفار - اعتمد التّهويش، وإطلاق الأحكام التي لا يدعمها «منطق» أو «تحليل» وكنت أنا المقصود، في مقالة الدكتور الفار. وفيما يلي البيان:

١ - يقول الكاتب: لم أشأ فيما مضى أن أكتب في هذا الموضوع، انطلاقاً من هاجس الإحساس بأنّي أتقصّد الردّ على أحد أنه هو - وَحْدَهُ - الحكم الفصل في صواب اللغة أو خطئها.

أقول: لم أقل ولا مرة واحدة، (وأنا أكتب منذ عام كلمة لغوية مرتين في الأسبوع، في جريدة الدستور الأردنية السائرة) إنني الحكم الفصل في صواب اللغة أو خطئها. ولا يعلن ذلك للمأ عاقل. وإنما أنا متخصص باللغة، فأجتهد في تصويب كثير مما خطأه اللغويون، ولا سيما في العصر الحاضر، أفعل ذلك «تيسيراً» على الناس، في حدود ما أجد له وجهاً في العربيّة وإحقاقاً لما أراه حقاً، لأن الحق لا يتجزأ، في اللغة كان أو في الدين أو في غيرها. ثم.. أخطئ بعض الاستعمالات.. نادراً.

وإذا وجدني كاتب المقالة أنني قلت، ولو مرة واحدة، أنني الحكم الفصل في صواب اللغة أو خطئها - فعليه أن يذكره، ليحوّل ادعائه إلى حقيقة لها شاهدها. أمّا رمي الناس بالتهم من غير دليل فهو يكشف عن طراز هذه الشخصية من الناس.

٢ - ويقول: أما وقد كثر الحديث عن قضية الخطأ والصواب على نحو مبتسر وبعيد عن الواقع الذي يتوخى المصلحة العامة وأهداف التيسير بدلاً من التعقيد فإنّي ألتمس لنفسى عذراً لخوض هذا الموضوع.

وأقول: إنني لا أبتسر ما أعرض له من اللغة، لأنني في كل مقالة آخذ لفظة واحدة أو عبارة واضحة، وأدير الحديث حولها على صورة أرجو أن تكون واضحة. وإنني لا أقصد فيما أكتب في اللغة إلا تحليل الواقع اللغوي اليومي والمستعمل. فمن

(١) - كتبت سنة - ٢٠٠٥م.

التجنّي القول بأن ما أكتبه بعيد عن الواقع. ثم.. إنى لا أقصد إلا المصلحة، وإلا التيسير. وقد وردت كلمة التيسير مرارا فى مقالاتى فى الجريدة. ولا ينكر معالجة الواقع اللغوية والتيسير فى مقالاتى هذه إلا من يصدّه الهوى عن قول كلمة الحق المبين. أنا أكتب - أصلا - لمعالجة الواقع اللغويّ لا- لاستئلال كلمات من المعجم، طواها النسيان خلافا لما يفعله كثيرون.

٣ - ويقول: ومن عجب أن بعض من يخطئون غيرهم لا يعتمدون فى تخطئتهم إلا على ما يتذوّقونه هم من القياس أو السماع. كأن يستشهدوا بآراء الكوفيين دون البصريين باعتبار الكوفيين فى رأيهم أقرب إلى طبيعة اللّغة من رأى البصريين. أو أنهم أقرب إلى بُعد النظر بسبب [تجاوب آرائهم] مع ما يحدث من تطور.

وأقول: أما القياس.. فليس لأحد أن ينكره، وإلا.. فماذا يكون مصير اللّغة؟ أما السماع.. فأنا أرى أن يقاس عليه - فيما ليس له قاعدة مناقضة - لأن مجاراة اللّغة للواقع والمستقبل لا يكون-على وجه سليم - إلا إذا فعلنا كل إمكانيّات اللّغة، ومنها تحويل السّماع إلى قياس، ولا سيما أن بعض ما اعتبره الأقدمون سماعا لقلته قد جدّ للمتأخرين منه ألفاظ كثيرة. ومثال ذلك أن النّحاة القُدّامى قالوا: ما كان من الصفات على وزن «فعلان» فمؤنّته على وزن «فعلّى». بيّد أنى وجدت فى (جامع الدروس العربيّة - للغلابيين) أربع عشرة كلمة، مذكّرها (فعلان) ومؤنّتها (فعلانة) مثل: أسّيان أسيانة، ونّدمان ندمانة، وسيفان سيفانة.. ووجدت بضع صفات أخرى فى لسان العرب والقاموس المحيط.

ألا يحق لنا أمام هذا أن نصوغ قاعدة جديدة فنقول: الصفة التى على وزن (فعلان) يأتى مؤنّتها أحيانا على وزن (فعلّى) وأحيانا على وزن (فعلانة)؟ بل أما يجوز لنا - من أجل التيسير - أن نُضيف: وأنت مطلق اللسان فى أن تجعل أيّ صفة لـ(فعلان) على وزن (فعلّى) أو (فعلانة)؟ أقول: خاصّة أن الذوق الحديث حتى عند الكتاب والشعراء أضحى يستسيغ (فعلانة) ولا يستسيغ (فعلّى). وذوق الأدباء معتبر فى استعمال ما يستعمل وأطراح ما يطرح، عندما يكون المستعمل له أصل فى الفصحى. فذوق الأدباء هو مِصفاة اللّغة.

وأقول أيضا: عجيب أن يأخذ عليك شخص، إذا كنت ترى رأى الكوفيين فى كثير من المسائل وتأخذ به - ألا تأتي برأى البصريين أما سمعت بمثل هذا فى مناهج البحث. إذ لا يجوز لأحد أن يُلزم الباحث بأحد الرأيين. وإنما الباحث يختار. وليس لك أن تُحاسبه إلا على ما فى اختياره من قوة حُجة أو ضعف حجة .

هَبَّ أحدا أخذ برأى البصريين.. أيجوز لي أن أقول: ولماذا لم تأخذ برأى الكوفيين؟ كل ما يجوز لي أن أقول: أخذت بالمنهج المرجوح، فمنهج البصريين يتهافت في كذا، وكذا، وكذا.. الخ وأدلل على رأبي.

٤ - ويقول: هذا، ويُصرّ هذا النفر من المخطئين إصرارا غريبا على هدم القاعدة الإملائية التي تعلمها طلابنا في المراحل الابتدائية والثانوية والجامعية بوجود حذف الألف من كلمة (ابن) و(ابنة) إذا وقعتا بين علمين بشروط هي^(١):

(أ) أن تكونا مفردتين مثل عمرو بن العاص، عمرو بن كلثوم، آمنة بنة وهب.
(ب) أن تكونا نعتين للعلم الأول، كما في الأمثلة السابقة. أما إذا كانتا خبرا فلا تُحذف ألفهما، كقولنا: خالد ابن الوليد. جوابا لمن يسأل: خالد ابن من؟ وكقولنا: عائشة ابنة طلحة. جوابا لمن يسأل: ابنة من عائشة؟

(ت) ألا تقع، في أول السطر. فإن وقعتا في أول السطر ثبتت فيهما الألف.
(ث) ألا يفصل بينهما وبين العلم الأول فاصل. فإن فصل بينهما وبين العلم الأول فاصل ثبتت الهمزة. مثل: خالد هو ابن الوليد. ويلحق بالعلم ما يلي = الكتابة عن شخص لا يعرف اسمه، مثل: أكرمني فلان ابن فلان. = الكنية: وهي ما صُدِّرَ بكلمة أبٍ أو كلمة أمٍّ مثل: الخليفة الأول هو أبو بكر ابن أبي قحافة، جاءت أم على ابنة أبي محمود. = اللقب. مثل: قرأت عن الهادي ابن زين العابدين.

فلماذا نُلغى حصيلة قواعد إملائية تعلمها طلابنا منذ عقود طويلة، وما زالوا يتعلمونها، وأقربها باحثون محدثون...؟

وأقول: قصدت أن أنقل النص كاملا عن إملاء (ابن)، لأسأل الإنسان المثقّف: أيُّهما الميسر وأيُّهما المعقد: أن تقول: (ابن) و(ابنة) تكتبان دائما بألف، من باب الرأى والاقتراح، أم أن تذكر كل ما ذكره كاتب المقالة من شروط رئيسية وشروط فرعية، ينسى بعضها المتخصصون. أنا صاحب الرأى الأول. وقد أوردته في جريدة الدستور، وكاتب المقالة الدكتور مصطفى الغار، صاحب الرأى الثاني. فإذا تذكّرت أن هذا الكاتب يتهمنى بالتعقيد في الرقم الثاني

(١) كلام الكاتب غير واضح، فإنا أرى إثبات الألف مع (ابن) و(ابنة) دائما. أما ما جاء به من الشروط بعد قوله، (إذا وقعتا بين علمين بشروط هي:) فهذه الشروط هو الذى يراها. أما أنا فأرى أن نحذف كل الشروط التى يحفظها طالب العلم ثم ينساها- إذا لم تراجع بين آن وآخر - حتى المتخصصون، ينسون بعضها، فما بالك بطالب المدرسة وبغير المتخصص؟

الذى أوردته من مقالته أدركت إلى أيّ حدٍ يخرج هذا الكاتب عن الموضوعية، ويناقض بعض أقواله بعضاً. بل - إن فاقد الشيء.. لا يعطيه. وهذا الكاتب ما عُرف له «تجديد» ولا في باب من أبواب العريية. وإذا كان لديه شيء جديد.. فليذكره على الملأ - شأنه انعدام التجديد شأن - ٩٠٪ - من المتخصصين بالعريية.

كان الله في عون طلابنا، ماذا يدرهم عن بعض هذه المصطلحات التي وضعها الكبار، من مثل - أن تكونا نعتين - أما إذا كانتا خيراً - ويلحق بالعلم ما يلي..؟

ثم .. إن التيسير في حدود الصواب مطلوب. أما ترى أن عائشة - رضى الله عنها - قالت عن رسولنا - صلى الله عليه وسلم - : «ما خَيْر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن حراماً»؟ وما طلبته أنا من التيسير هو في رأيي هو الصواب، لأننا إذ نضع الألف دائماً في أول (ابن) و (ابنة) لا نُضِيع معنى أبداً، وهى - بعد - مثل ألف (القَم) تُكتب ولا تُلفظ في دَرْج الكلام. وإن الذى جنى على المغاربة أن يقولوا: (بِن بركة - بِن جديد..)^(١) إنما هو حذف الألف من (ابن)، لأن المرء - بشكل عام - يقرأ ما يرى، وهو يرى (بِن) وليس (ابن) فيقرأ كما يرى. لأن الحرف .. أصله «رمز» لصوت، والألف في حالة البدء بها صوت مسموع. وغير مسموع في درج الكلام كألف (القَم) فلماذا على رأى المقلدين للقدامى - لا نحذف (ألف) القمر؟.

أما الذين يضعون لابن وابنة قواعد عدة فهم لم يأتوا بمعنى ذى بال لكل حالة من الحالات، وكأن الإملاء يَضِيع إذا لم تأتيا على وفق هذه القواعد المعقدة. أما التساؤل: لماذا نلغى حصيلة قواعد إملائية..

فالجواب أن الإنسان يسعى دائماً إلى الأيسر الذى لا يخرج على الصواب. وما اقترحته أيسر بكثير مما هو مألوف ويتعلمه بصعوبة طلابنا، دون أن نخسر في هذا التيسير شيئاً. أما ترى أن التعليم كان تلقينياً على مدى قرون. والآن أصبح الرأى الراجح أن التعليم الناجح هو التعليم عن طريق المشاركة والمحاورة. بل إن الناس، لقرون كانوا يَرَوْنَ أن الأرض مركز الكون وأنها ثابتة. ثم.. اكتشف العلم حديثاً أنها كوكب صغير وليست مركز الكون، وأنها تدور حول الشمس وتدور حول نفسها. فترك التعليم ذاك القديم وأخذ بهذا الحديث الذى اكتشفه العلم.

(١) بن بركة - بن جديد: تكتب بدون ألف، ويكسر الباء وتسكين النون على ما هو متعارف عند المغاربة.

وهذه جنابة الخلل الإملائي المتوارث.

أما أن هذه القواعد المعقدة - أنا أقول- قد أقرها تربويون مُحدَثون فليس بحجة علينا، لأنهم أعملوا عقولهم التي لا تحتوى طبقة «التجديد» فارتضوا ما ورثوه عن الأجداد، في هذه النقطة، ونحن أعملنا عقولنا فخالقناهم. وهم رجال ونحن رجال. ونحن نعرض رأياً نُؤمن به ليس أكثر. فمن اقتنع به أخذ به. ومن لم يقتنع احترمنا اختياره. إن المقلدين البائسين هم الذى يعتقدون - واهمين- أن كل ما تركه القدامى هو حقٌ وصدقٌ وصواب، فليس علينا إلا أن نحفظه لنقلدهم فيه، إن الكاتب الذى - يُحدِّق - فى الحاضر، وينسى المستقبل إنما هو رجل تقليدى من زوامل المعلومات، وليس له نصيب فى حركة العلم وتطوره.

والإملاء - بعدُ - ليس مقدساً، وإنما أفضلُهُ ما طابق فيه الحرفُ الصوتَ، مع استثناءات قليلة. والدليل على ذلك أنه تطوّر مراراً خلال العصور. الثابت فى أصوله ومقاييسه العامة فهو اللّغة، نحواً وصرفاً وتركيباً وليس الإملاء الذى هو رموز لأصوات اللّغة ليس أكثر.

ه - ويقول: مما تقدم بيانه يتضح عدم جواز إطلاق الأحكام العامة بالخطأ والصواب على نحو تعسفى فردى دون مسوّغٍ إلا مخالفة الواقع المعيش، والمعمول به حتى اليوم.

وأقول: أنا حريص حرصاً علمياً وأخلاقياً على أن لا أصوّب أو أخطئ بناءاً^(١) على دليل أو تعليل. وإذا وجد الكاتب رأياً تعسّفاً فليبرزه. وحسبك من احترام للعلم والأخلاق أن يورد المرء رأيه مع دليله أو تعليله ومن ينهج هذا المنهج فلا يخالف الواقع المعيش من أجل المخالفة وإنما لأن له وجهة نظر «مُعَلّلة» يريد أن يوصلها للناس، يريد بها رضا الله ومصالحة الناس.

أما أنه رأى فردى.. فملايين الكتب كتبت كلاً منها فرداً. وهذا، لا يحول بين جهود المجامع واللجان التى لم تُعرَف إلا فى العصر الحاضر وبين ما تتخذها من قرارات، وهذه

(١) بناءاً: أكتبها وفى آخرها ألف بعد الهمزة. لأن حذف الألف المنونة بعد الهمزة، فيما ورثناه فى هذا الشأن، ليس له مُبرر معقول. يقولون فى التعليل: تحذف الألف من الآخر، فرارا من توالي الأمثال. أقول: هم يعتبرون الهمزة من جنس الألف. وهذا.. غير صحيح، فالهمزة مثل (العين)، وليست من جنس الألف، وإن كتبت أحيانا على ألف. فالألف مجرد قاعدة، وإنما الصوت للهمزة. وكما تكتب على ألف تكتب على ياء وعلى واو. ومع ذلك.. فليس من أحد يعتبر الهمزة من جنس الياء أو من جنس الواو. فكما نقول: (جياعا) يجب أن نقول: (بناءاً) - فالهمزة صوت حلقى كالعين، فكما نضع بعد العين ألفاً منونة بالفتح- يجب أن نضع ألفاً منونة بالفتح، بعد الهمزة.

فكما نقول: صراعا.. فلا نحذف الألف المنونة يجب أن نقول بناءاً.. بإثبات الألف المنونة. ومثلها كل الهمزات التى يأتى قبلها ألف ويأتى بعدها ألف منونة، مثل: ابتداء - استثناء - لأواء.

اللجان والمجامع تأخذ ما تراه من رأى الأفراد، وتُهمل ما لا تراه، أو تُردّ عليه، والحكم الذى هو أعلى من المجامع واللجان إنما هم الأدباء المبدعون، فإذا هم استساغوا شيئاً واستعملوه سار، وإذا هم لم يتذوقوه أهملوه فبار.

ثم.. إن الدعوة إلى صمت الأفراد حتى تنطق المجامع إنما هي دعوة تنتصب ضد الحرية، وتعدّد الآراء، وإطلاق ملايين الطاقات التى لا تضمها المجامع، بل لا تتسع لها. بل إن بعض أعضاء أيّ مجمع لا يقتنعون بالرأى الذى يفوز، من خلال التصويت، فيكتبون مقالات وكتبا يوضحون فيها آراءهم، خدمةً للعلم، وإبراءً للذمة. يا دكتور - ليتك ذكرت - مثلاً واحداً - بسّ، تدلل به على الأحكام التعسفية التى أتيت - أنا - بها.

والأ.. فهل ترى أن المجامع (مع جهودها الكبيرين) قد نجحت عندما أطلقت على التلفاز مصطلح «مِرْناة» فأصبح نادرة يتندرّ بها الناس، ثم.. جاء رجل واحد هو المرحوم الدكتور أحمد زكى رئيس تحرير مجلة (العربى) سابقاً، فقال: أرى أن نُطلق على التلفزيون تلفازاً. فسارت بين الناس.

وهل تُعَدِّم كتب الأخطاء اللغوية.. القديمة والمعاصرة التى ألف كلاً منها فرد؟ من القديم: الفصحى لثعلب، ودرّة الغواص للحريرى، ومن الحديث: لغة الجرائد لإبراهيم اليازجى، وقل ولا تقل لمصطفى جواد، ومعاجم للأغلاط اللغوية لمحمد العدنانى؟ وغيرها كثير وهذه المعاجم... فيها الصواب، وفيها الخطأ.

إن الجهود تتكامل ما بين المجامع والأفراد، فلا يحق لنا أن نقف حجر عثرة فى طريق التأليف: فردياً أو جماعياً، إبداعياً أو علمياً، الشرط العلمى والأخلاقى هو أن يكون الرأى مُقَيِّداً بدليله أو تعليله، وليس سابحاً فى الفراغ، وفى متاهات الوهم - أو ضلالات الأحكام العامة التى ليس عليها أى دليل، والأ.. فَتَهَبُ العلماء فى مجالات العلوم والمعارف كافةً - توقفوا عن التأليف إنتظاراً لما تجود المجامع - أما تنتهى إلى حياة علمية يائسة كبؤس المقلدين؟

٦ - ويقول: أمّا الترخّص فى تصحيح بعض الأساليب والتعبيرات الشائعة التى أنكرها الأقدمون أو التى لم تسجلها المعاجم اللغوية فينبغى أن تقرّر تخريجها لجان وأن تعتمد المجامع. ولا يكفى أن يُطلقها شخص واحد جُزافاً، ودون دليل كافٍ. ففى ذلك إنكار لدور اللغويين، وخروج عن جادة الصواب، ومُخالف للإجماع الذى يتطلّبه الحفاظ على لغتنا العربية، لغة القرآن.

وأقول: لم يأتِ الكاتب بجديد، وإنما عاد عودة إلى بعض ما ذكره سابقاً فهو كالعائد في الذي أفضاهُ. ثم.. أنا لا أطلق ما أصححه أو أخطئه، دون أن يكون قائماً على دليلٍ كافٍ، ولا أطلقه جزافاً. فالجزاف والتجنى والحسد الذي يأكل القلب الحسود عند الذي يُطلق أحكاماً كثيرة دون أن يدلّ على صحة واحد منها بمثال.

أما سألت نفسك، لو كنت ذا عقل يتصف بـ«العلمويّة» - كيف أُطلق أحكاماً (على حلّ شعرها) كما يقول المثل المصري، من دون أن تُدلّل على ذلك، ولو بدليل واحد؟.

ثم.. من قال لك: إن هناك إجماعاً في اللّغة أو في الفقه؟ إن لسان العرب مملوء بمخالفات بعض اللّغويين بعضاً في ألفاظ كثيرة. بل إنه كان من أهداف مؤلف (القاموس المحيط) أن يُخطئ الجوهرى فيقول: وَوَهَمَ الجوهرى - الجوهرى صاحب مُعجم الصّاح.

ومثل ذلك في الفقه. فلم تكن في الإسلام قرابة سبعة مذاهب فقهية إلا لأن الفقهاء اختلفوا في كثير من الفروع وكلُّ رأى يحترم، سواءً أأخذ به جمهور كبير أم جمهور صغير، إذا كان قائماً على دليل وتعليل.

أمّا الخروج عن جادة الصواب فلم يمارسه إلا الذي لم يأتِ بمثل واحد يدعم به حُكماً من أحكامه الجزافية. وعادةً ليس الهروب من التخصيص إلى التعميم يكون إلا لأن هذا الهروبي لا يجد مادة خاصة فيما ينقده، تدعم أحكامه العامة. وعادةً الأحكام العامة، دون دليل هي طابع العامة، وليس طابع الخاصة.

أمّا الدعوة إلى الحفاظ على لغتنا العربية.. لغة فهم القرآن - فهذا ما أسعى أنا إليه من خلال مقالاتي اللّغوية التي أكتبها في جريدة الدستور. وليس من أحد يستطيع أن يُزايدي عليّ في هذا الشأن. فأنا أهتم بالفصحى، لأنها لغة القرآن الكريم، إذا كان كثيرون يتعصبون إلى اللّغة، بلا هدف نبيل.

وبعد: فلعلك رأيت أخی القارئ أنّ هذا الكاتب تناقض في بعض أحكامه، وأرسلها جميعاً مُطلقةً، دون أن يلتمس ولو مثلاً واحداً عليّ ما كان يدعى. وهذه أسباب كافية لاعتبار ما كتبه دون مُستوى البحث العلمي الذي يلتبس الحق والعدل، والإنصاف. وإنما وراء ما كتبت هوىً وحسداً. وكما قيل: (كل ذى نعمة محسود).

وبعد أيضاً: فقد أطرى مقالاتي اللّغوية التي أكتبها في الدستور عالم لغوى جليل

هو أستاذنا الدكتور ناصر الدين الأسد، في أكثر من مُناسبة ألتقينا فيها. وعالم جليل مثله لا يجامل في الحق، لأنه يعلم أن كلامه وثائق. وأن الناس سيستشهدون به، فيذيعونه، وفي آخر لقاء قال لي: أهلا باللغوى الكبير.. وهذا رضى عن المنهج على الأقل، وعلى كثير من التفصيلات. أعاذنا الله تعالى من (عين) الحسود - الذى يرسل كلماته صمًا كالجلمود.

والله تعالى المستعان، وعليه التكلان.

الموضوع السادس

اللغة العربية والمُعاصرة (العربية أدق اللغات بياناً)^(١)

فى برنامج (الديوان) الذى يُشرف عليه الأستاذ الشاعر حيدر محمود ويُبثُّ من التلفاز الأردنى - كانت حلقة مساء الإثنين ١٨ - ٤ - ٢٠٠٥م، عن اللغة العربية الفصحى ومستقبلها، ويُبثُّ من بيروت - عاصمة الثقافة.

وانى أريد أن أسجّل الملاحظات الأربع التالية حول هذه الحلقة: -

١ - قال أحد المشتركين، مُقارناً بين اللغة العربية واللغات الأجنبية:

إن اللغة العربية لغة فيها القدرة على التعبير عن مشاعر الإنسان وأحاسيسه، أى: فيها القدرة على التعبير عن الجانب الإنساني فى الإنسان. وليس كذلك اللغات الأجنبية؛ فهى لغات تعبر عن الجانب المادى فى الحياة، وحده.

أقول: إن كل اللغات الغنية المتحضرة.. تُعبر عن الجانب المادى فى الحياة، وعن الجانب الإنساني فى الإنسان على «تفاوت». لأن اللغة هى ترْجُمان واقع الحياة، بجانبها المادى والإنسانى. وليس من لغة لا تكون كذلك. وهذا.. ينطبق حتى على اللغات غير الحضارية، وليس على اللغات الحضارية، وحدها. لأن اللغة، وإن كانت ألف لفظة، ليس أكثر، تعبر، ولو بدرجة ضئيلة عن فكر الإنسان، ومشاعره. بل اللغة تبدأ - إنسانية - لأن الإنسان يبدأ يعبر عن اندهاشه بموجودات الحياة، فكل شيء يراه يستثير استغرابه واندهاشه، فيبدأ يعبر عن (مشاعره) بالحركة والصوت (كالصرخة، والآه، وما شابه ذلك، ثم ينتقل إلى التعبير بالصوت المركب (أى - بالكلمة القصيرة ذات الدلالة) - ومع التطور تتكوّن لديه كلمات تعبر عن مشاعره، ثم يترقى، فتزداد الكلمات، بحيث تعبر عن مشاعره، وتعبر عن فكره - تعبيراً - ما. وهكذا.. فكل لغة تبدأ إنسانية (بمعنى أنها تعبر عن طبيعة الإنسان) أى - كل لغة تبدأ لغة (شعورية) أو شاعرية. فأين التدبّر لتطور الإنسان ولغته عند هذا الأستاذ المحاور؟ إن التعصب الذى لا دليل عليه.. قاده إلى هذا). والعربية الفصحى إلهامية، غير أن الله منزّلها - جعلها جارية على الطبيعة البشرية، وليست مدبرة لها.

(١) كتبت سنة - ٢٠٠٥م.

يَبْدُ أَنْ اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ.. لَهَا فَضْلٌ بَيَانٍ عَلَى اللُّغَاتِ الأُخْرَى. أما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]. (الآية جاءت ردًا على الذين يَتَّهِمُونَ الرُّسُولَ الأَعْظَمَ بِأَنْ مَا يَأْتِي بِهِ مِنْ قُرْآنٍ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ إِيَّاهُ بَشَرٌ، (وهو غلام أعجمي كان قينا!)، لاحظ أن الله تعالى لم يصف اللسان الأعجمي بالإبانة، وإنما قصر الوصف بالإبانة على اللسان العربي. ولو كان اللسانان مُتساويين لجاء الكلام: (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عربي) « ليس أكثر.

والتدليل على أن اللسان العربي فيه فضل بيان على أي لسان أعجمي يطول، ويكتب فيه مُجَلَّد. ولكنني أكتفي بأن أذكر ناحيتين، وأن أمثل على كل منهما:

(أ) اللُّغَةُ العَرَبِيَّةُ لُغَةٌ «الاشْتِقَاقُ» وَلَا تُزَاحِمُهَا فِي هَذَا لُغَةٌ أُخْرَى. فَأَنْتَ يُمْكِنُ أَنْ تُشْتَقَّ عَشْرِينَ كَلِمَةً مِنْ مَادَّةِ «كَتَبَ» مِثْلًا، وَلَكِنْكَ لَا تُسْتَطِيعُ أَنْ تُشْتَقَّ مِنْ مَادَّةِ (write) الإِنْجِلِيزِيَّةِ إِلَّا كَلِمَاتٌ قَلِيلَةٌ. لَاحِظْ أَنَّكَ تُشْتَقُّ مِنْ «كَتَبَ» مَكْتَابًا. وَلَكِنْ مَقَابِلُهَا فِي الإِنْجِلِيزِيَّةِ لَا يَأْتِي مِنْ مَادَّةِ (write)، وَإِنَّمَا هِيَ (office). وَتُشْتَقُّ مِنْ «كَتَبَ» .. مَكْتَبَةٌ، وَمِنْ الإِنْجِلِيزِيَّةِ شَيْءٌ آخَرُ فَهِيَ (library)، ثُمَّ (كِتَابٌ)، وَهِيَ فِي الإِنْجِلِيزِيَّةِ مِنْ مَادَّةِ أُخْرَى (book). وَهَكَذَا.. عَشْرَاتُ الكَلِمَاتِ وَقَدْ وَرَدَ مِثْلُ هَذَا القَوْلِ - سَابِقًا^(١).

وقيمة الاشتقاق أنه يمكنك من أن تعبر عن أدقّ الخلجات الوجدانية، مما لا يكون في اللُّغَاتِ غَيْرِ الاِشْتِقَاقِيَّةِ، أَوْ الَّتِي يَقْلُ فِيهَا الاِشْتِقَاقُ كَالِإِنْجِلِيزِيَّةِ، مِثْلًا.. قَالَ الإِمَامُ عَلَى ابْنِ أَبِي طَالِبٍ: (حَتَّى قَالَتْ قَرِيشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ شُجَاعٌ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالحَرْبِ. لِلَّهِ أَبُوهُم. وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا مِنِّي؟ لَقَدْ نَهَضْتَ فِيهَا وَمَا بَلَغْتَ العَشْرِينَ، وَهِيَ أَنَا ذَا قَدْ «ذَرَفْتُ» عَلَى السِّتِينَ. وَلَكِنْ، لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ!). فَالفِعْلُ «ذَرَفَ» المُشَدَّدُ الرِّاءُ لَا نَجِدُ نَظِيرًا لَهُ يُوَدِّي مَعْنَاهُ بِالتَّمَامِ بِالإِنْجِلِيزِيَّةِ. وَمَا ذَاكَ إِلَّا بِسَبَبِ الاِشْتِقَاقِ، أَيْ: بِسَبَبِ الاِشْتِقَاقِ بِالحَرَكَةِ، عَنِ طَرِيقِ نَقْلِ حَرَكَةِ الرِّاءِ مِنَ الفَتْحَةِ إِلَى الشَّدَّةِ المُفْتَوْحَةِ. فَلَوْ قَالَ: بَلَغْتُ السِّتِينَ، أَوْ كَدْتُ أَنهَى السِّتِينَ.. لَخَ لَمَا كَانَ لَذَلِكَ مِنَ الإِشْعَارِ بِمَا يُحْسَهُ المَرءُ الَّذِي يَكَادُ يَنْهَى العَامَ السِّتِينَ مِنْ عَمْرِهِ بِأَنَّهُ حَنَكْتَهُ التَّجَارِبَ الَّتِي تَمَخَّضَتْ عَنْهَا هَذِهِ السُّنُونُ السِّتُونَ.

(١) يراجع ما بيّنا به تفوق العربية على الإنجليزية (وغيرها من اللغات) - في القسم الثالث.

وجمال هذا الاشتقاق - بتشديد الحركة في هذه الكلمة - إنما يأتي من وجهين: الأول - أن الإمام نقل المعنى نقلاً مجازياً من (ذَرَفَ الدمع) إلى مجال سنوات العمر. فكما أن العين تُرسل الدمع قطرة قطرة، فسنوات العمر تمرّ (أو تقطر كالدمع) واحدة بعد أخرى. والثاني - أن (ذَرَفَتِ العين الدمع) بلا تشديد الراء، لا يماثل (ذَرَفَتِ العين الدمع) بتشديد الراء. لأن الأول (فعل) عاديّ، أما الثاني ففعل يدلّ على (المبالغة) أي: على شدة التألم والحزن، بحيث يكاد الدمع ينصبّ انصباباً.

والإمام إذ استعمل الفعل المُشَدَّد (ذَرَفَتِ) إنما كان يحسّ أن الموقف يستدعي التأكيد بأنه ذو تجربة طويلة في الحرب يجب ألاّ يغمطه حقه فيها أحد.

٢ - مرونة العربيّة في التقديم والتأخير - وجمود التركيب في الإنجليزيّة.

إن الإعراب، في العربيّة، يساعد على المرونة في التعبير، بحيث يقدم المتكلم ويؤخر تبعاً لجزئيات المعنى، أعني أن المتكلم يرتّب الكلمات في التعبير، تبعاً لترتيب جزئيات المعنى في النفس، فالألفاظ.. خدمُ المعاني، كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجانيّ. وهذه المرونة في ترتيب الكلمات أمثل صورة تعبيرية عن المعنى. أما الإنجليزيّة.. فالتعبير فيها - كقاعدة عامة - جامد وقد ورد مثل هذا الطرح، في مواطن متفرقة من هذا الكتاب.

مثلاً.. المتنبي - الشاعر العظيم قال، عندما فارق سيف الدولة، بعد غضب سيف الدولة عليه، من قصيدة رائعة، يشكو فيها، ويمدح كافورا الإخشيدى - حاكم مصر - قال:

فما ينفَعُ الأسدُ الحياءُ من الطوى ولا تُتَقى حتى تكون ضواريا

ونحن - للاختصار - نتناول الشطرة الأولى وحدها؛ لاحظ أن المتنبي قدّم المفعول (الأسد) على الفاعل (الحياء). لماذا؟ لأن الذي كان يُحزن المتنبي ويملاً نفسه شجناً في ذلك الحال.. افتقاره «للقوة». إذ لو كان قويا لما تسأل هاربا من جمى سيف الدولة؛ بل لناجزه.. ولا ريب أن الأسد رمز للقوة، ولهذا.. عندما بدأ بنظم هذا البيت قفز إلى شعوره رمزُ القوة - القوة التي يفتقدها - فجاء ترتيبه النفسي (ترتيب هذا الرمز) قبل الفاعل (الحياء). ولهذا.. جاء نظم الشطرة على تقديم المفعول قبل الفاعل. وأدقّ الكلام تعبيراً ما كان ترتيبه في الاستعمال كترتيبه في النفس، أي - كترتيبه في الوجدان.

بيد أن الشاعر الإنجليزى، لو كان في مثل حالة المتنبي لا يستطيع أن يقرى قرئاً، بسبب جمود قوالب الإنجليزيّة. الشاعر الإنجليزى لا يملك إلا أن يقول في هذا المعنى:

(The Shamefulness does not benefit the lion from hungry).

لأن الفاعل (الذى يأتي مُبتدءاً في الإنجليزية) لا يمكن تأخيره بعد المفعول. ولا ريب أن هذا الوضع الجامد لا يُساعد الشاعر (أو المتكلم بشكل عام) أن يُفرض بكل ما فى نفسه، حَسَبَ ترتيب جُزئياته فيها. وهذا.. قُصور فى الإنجليزية لا تُعاني منه العربية. وهذا.. من الأسباب التى تجعل العربية أدق بيانا من الإنجليزية، وسوى الإنجليزية من اللغات.

٣ - وقال مُشترك آخر فى الندوة: اللغات الأخرى لا تجد كلمات دقيقة لترجمة القرآن الكريم.

وأقول: بديهي أن القرآن لا يمكن ترجمته، لأنه مُعجز فى بيانه (وفى جوانب أخرى كثيرة)، وإنما تترجم معانيه، كما يفهمها البشر.

ولكن حتى ما هو دون القرآن - وهو الأدب، والأدب فى أعلاه - (كثافةً فنيةً) الشعر - لا يمكن ترجمته على نفس مستواه البلاغى. سواءً من العربية إلى غيرها من اللغات، أم من اللغات الأخرى إلى العربية. وقد يما قال الجاحظ العظيم: الشعر.. لا يمكن ترجمته (من العربية إلى غيرها، ومن غيرها إليها). لأن الشعر بالدرجة الأولى، والأدب الرفيع بالدرجة الثانية.. هو تعبير عن حالة وجدانية خاصة، ويستحيل أن يجد المترجم نفسه فى مثل تلك الحالة الخاصة، لى يأتي تعبيره الفنى على مستوى التعبير الفنى الذى «فاض» به وجدان المُبدع الأول. إذن.. السبب الأول ليس عدم وجود كلمات دقيقة (مع أن ذلك يكون أحياناً)، وإنما هو عدم تطابق حالة المترجم الوجدانية مع حالة المبدع الوجدانية.

ولهذا.. فأنت ترى أن المواد «العلمية» و«الفكرية» يمكن ترجمتها، لأن العلم واضح، ولا علاقة له قوية بالوجدان (بالعواطف والمشاعر والأحاسيس)، وكذلك الفكر. وحتى عندما تأتي بعض الألفاظ المعبر عنها فى لغة، وليس لها مقابل فى اللغة المترجم لها.. فإن الإتيان بألفاظ مقاربة أو بكلمتين بَدَل كلمة حتى يُستوفى المعنى... أمر ممكن. ولأن العلم والعقل لا علاقة لهما بتعرجات الوجدان فإنه من المعلوم أن بسط قضايا العلم لا يحتاج إلى أكثر من عشرين ألف كلمة، أما الأدب (والشعر الخاصة) فلكى يتمكن الأديب من التعبير عن خلجات النفس وتعرجات الوجدان.. فإنه يحتاج إلى أن يكون رصيده من الكلمات لا يقل عن ثلاثين ألف كلمة. أما القرآن.. فما أبعد أى لغة عظيمة من الاقتراب، من بلاغته!

فكيف يترجم القرآن، وقد نزل على طريقة ضُمَّ خاصة معجزة؟ وكيف يترجم جلاله . وبهاؤه، وإشعاعات معانيه، والدقة الكاملة في تلاحم اللفظ والمعنى، وتعدد طبقات المعانى والإشعاعات فيه ... إلخ..؟

٤ - أما قول أحدهم بأن الإنسان، فى كل العصور يعيش حضارة واحدة متعددة الحلقات. ولكن الثقافات متعددة.. فأقول: ذلك غير دقيق.

بل الإنسان عاش حضارات متعدّدة، وثقافات مُتعدّدة، عَبَرَ التاريخ؛ لأن الحضارة لا تقوم بدون «فكر». والفكر مختلف من أمة إلى أمة، ومن حِقبة تاريخية إلى حِقبة أخرى. وإلا.. فهل الفكر اليونانى القائم على الإلحاد وتعدد الآلهة (الذين هم فى وَعْيِ اليونان ذوو صفات بشرية وأخرى فوق الصفات البشرية).. مثيل للفكر المسيحى القائم على عقيدة دينية، أو مثيل للفكر الإسلامى القائم على توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الصفات البشرية؟ طبعاً.. لا.

وكل فكر.. تتولد عنه حضارته، وتتولد عنه ثقافته، كما يتولد الشُعاع عن الشَّمس، والنبات عن المطر، وحتى «العلم» فله ارتباط بالحضارة، وإن كان العلم يمكن أن ينتقل من حضارة لأخرى، دون عقبات كبيرة. ولا يمكن أن تخالف الثقافة.. الفكر، لان الثقافة هى تَحَوُّرٌ وجدائى للفكر، من خلال الأدب، ومن خلال القيم، وأنواع السلوك الخاص.

أما الملامح المشتركة بين حضارة وحضارة.. فهى لا تعدو كونها تعبيراً عن القاسم المُشترك فى جُزئيات الفكر وتلَوُّنات الوجدان بين الإنسان وأخيه الإنسان. أما ترى أن الشيوعية التى هى نقيض الإسلام.. تدعو، فى الجانب الاقتصادى، إلى أن يُوزَع المال على الجميع بحيث لا يبقى جائع - كما يدعو لذلك الإسلام؟ وهذا.. ما «تلبس» على عالم إسلامى مُعاصر بحيث كتب كتاباً فى الاقتصاد سمّاه (اشتراكية الإسلام)، ذلك.. للتشابه الشكلى بين الدعوتين فى الجانب الاقتصادى. أو - لتشابه جزئيات الفكر. مع أن الفرق، فى جوهره، بعيد جداً بينهما؛ فالإسلام يعتبر هذا التوزيع «العادل» للثروة عبادة يُثاب عليها المسؤولون الذين يُقيمونها بين الناس - ثواباً من الله تعالى قد يُرَجَّح كفة حسناتهم يوم القيامة، فيدخلون الجنة، ومثل المسؤولين الأفراد الذين يُنفقون من أموالهم فى وجوه الخير.

أما الشيوعية.. فلا علاقة لنظرتها للاقتصاد بثواب أو عقاب، لأن الشيوعية من حيث المبدأ ليست عقيدة دينية تؤمن بالآخرة، وبالحساب والعقاب.
ولديّ ملاحظات أخرى. ولكنني أكتفي بهذه الملاحظات الأربع السابقة، حتى لا تكون الإطالة.. مانعةً من النشر، ومملةً للقارئ الكريم. والله تعالى يهدى إلى الحق والرفق.

الموضوع السابع

اللغة العربية - والعشوائيات العربية^(١)

تمهيد:

- قرأت في مجلة (العربي) التي تصدر في - الكويت - في العدد - (٦٤٥) -
٢٠١٢م - مقالة للدكتور إبراهيم مهدى الشبلي - من العراق - وعنوان المقالة: (أدركوا اللغة
العربية) - إذ يرى أن العربية الفصحى في خطر» ويذكر (وأختص) بعض مظاهر الاستهانة
بالفصحى - من مثل تداول كلمات أجنبية. داخل سياق الجمل العربية، وكتابة لافتات
بعض المحلات (والمحلات.. صحيحة كالمحال) باللغة الإنجليزية، وارتداء ملابس مكتوب
عليها عبارات بالإنجليزية وغيرها.

- ثم.. يورد اقتراحات لدعم الفصحى - منها (وأختص): قيام المنظمة العربية بجمع
الدراسات السابقة، ثم إنشاء دراسات جديدة، حول سبل النهوض بالعربية، - الإكثار من
الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية...

العشوائيات العربية:

- لنفرض أن حاكما أراد أن ينشئ لدولته عاصمة جديدة، فاختار مكانا، بدأ البناء
عليه. ولكن لم يضع - بواسطة الخبراء - مخططا عاما لعاصمته، تظهر فيه مواقع الدوائر
الحكومية، متفرقة، حسب وظيفة كل وزارة، والأماكن المخصصة لبناء - الدارات - وأخرى
لبناء الشقق، وهي أوسع الأرض، وأماكن أخرى - للمصانع، وأخرى للمتاجر - حسب
المناطق، وأماكن للحدائق، وللملاعب... إلخ... أو - لم يختار أي نوع من التنظيم.

- فبدأ البناء، ومضى - عشوائيا - كل يبني أينما شاء، سواء - أكان البناء - لدارة، أم
لعمارة ذات شقق، أم لمرآب للسيارات، أم لقصر للحاكم، أم لبناء لوزارة... إلخ...

- أما تكون هذه العاصمة تضم كل أنواع الأبنية والمرافق - التي تضمها عاصمة أخرى،
ووضع لها مخطط كلي، مسبقا، وضع كل شيء في محله؟ - أجل - تضم كل ذلك،
ولكن الفرق بين تلك العاصمة التي بُنيت بلا مخطط كلي، وبين هذه العاصمة التي وضع

(١) كتبت، سنة - ٢٠١٢م.

لها مخطط شمولى أو كُلى، مسبقاً- أن الأولى قامت على- عشوائيات - كعشوائيات الفقراء المُعْدِمِينَ، فى المدن الكبرى، فى العالم العربى، والعالم بأسره. أما الثانية.. فقامت - بفضل المخطط الكلى- على تنظيم وتصميم وترتيب، جعل كل شيء فى مكانه. ونتيجةً هذا .. أن العاصمة التى قامت على مخطط كلى تحقق أهدافها بنجاح. أما تلك بُنيت عشوائياً تتضارب المصالح بينها، وتتقاطع.. فلا تحقق إلا ما يزيد عن خمسين بالمئة (٥٠٪) من أهدافها ومقاصدها. هكذا.. الدول العربية؛ ليست أكثر من عشوائيات، لا تستطيع أن تحقق من أهدافها الوطنية أكثر من (٥٠٪) خمسين بالمئة، ولا من أهدافها - القومية، أكثر من (٢٥٪) خمس وعشرين بالمئة. ولهذا.. فالدول العربية.. فاشلة فى حفظ حدودها، وفى تنمية مواردها، وفى تحقيق احترام لها فى العالم، أو كلمة مسموعة، بل أو المساهمة فى بناء الحضارة، بل نحن عشوائيات مستهلكة لفتات ما يصدره العالم المتقدم المتحضر - لنا!!

شأن مقترحات الدكتور إبراهيم مهدى:

- هذا.. شأن مقترحات الدكتور إبراهيم مهدى الشبلى (على أهميتها الجزئية) - لأنها لا تزيد على أنها - عشوائيات - كعشوائيات العاصمة التى قامت بلا مخطط كلى (وعشوائيات هذه المدينة .. مُهْمَة. ولكنها قاصرة عن الغاية المرجوة، من التخطيط والتنظيم ووضَع كل شيء فى مكانه. فاللغة لا تحقق أهدافها بهذه الجزئيات، وإن كان لا بأس من جهد المقل.

- وإن.. لا بُدَّ لهذه المقترحات من أن تنضوى، ضمن مخطط كلى، والمخطط الكلى لا يكون، ويستحيل أن يكون، ما دامت البلاد العربية تقوم على - عشوائيات- من الدول العربية، الدول العربية.. التى بُنيت من دون مخطط كلى. أو التى جزأها الاستعمار وبقيت على تجزئتها، بل عمقها الحاكمون.

- ومخطط هذه الدول - الكلى- هو ألا تبقى عشوائيات، كل قبيلة دولة، وكل مساحة من الأرض لا تتسع لتكون أرضاً لإقطاعى، حكومية - كما قال الشاعر - المتذمر من حالة التفرق والتشردم:

(وتفرقوا، دُولاً؛ فكلُّ قبيلةٍ فيها أميرُ المؤمنينَ ومنبئٍ!)

- هو أن يصير بينها - جميعاً - اتحاداً ما (أما أفكار الوحدة وأفكار طوباوية لا تصلح للعيش على الأرض) - يجمع كلمتها، تحت قول واحد، ويخلق تعاوناً وتكاملاً حقيقياً،

بين أقطارها، فلا يجوز أن يكون بلد عربي - يملك مئات المليارات الفائضة عن ميزانيته، وآخر- الجياع فيه أكثر من مستورى الحال - (مع بقاء فروق بين المانح والمنوح، فى القدرات المالية).

- ولا يجوز أن تظل - العشوائيات - العربية، متفرقة، منها ما تطمع فيه إيران، ومنها ما تطمع فيه إسرائيل، وكلها تحركها كلمة من الجاثم فى البيت الأبيض، وتُسكَّنُ منها (من) تشاء.

- بل يجب أن يكون للبلاد العربية كلها، بل هذه العشوائيات العربية، سياسة واحدة، ونظام اقتصادى واحد- وتكافل إنسانى واحد.

- عندإِذٍ..، وعندإِذٍ.. فقط يصيح العربى لا يُدخِل فى سياق كلامه كلمات أجنبية، بل يعتز بعرويته، وبلغته العربية - وتصبح أسماء المحلات عربية، وعلى الأكثر يُكتب الاسم بالأجنبية بخط صغير وبين قوسين. ويكتب الاسم العربى بخط جهير.

- ولا يلبس ثيابا عليها كلمات أجنبية، بل كلمات عربية- وتتحول وسائل الإعلام المرئية والمسموعة - آليا - فى معظم برامجها إلى الفصحى..

- عندإِذٍ..، وعندإِذٍ.. فقط تصبح هذه العشوائيات من المقترحات الجزئية اللغوية للنهوض بالعربية هى لبنات فى بناء كامل متكامل، وليست لبنات متناثرة، قد يتعثر فى بعضها السائرون- !

لا خوف على العربية الفصحى:

- وحتى، فى جحيم هذه - العشوائيات - من الدول العربية، وفى واقع هذه اللبانات المتناثرة من المقترحات.. فلا خوف على العربية! كيف؟

- لو كانت العربية ستنقرض، أو - على الأصح - تحمل جراثيم الانقراض، لانقرضت فى عصور الانحطاط، عندما أصبح الأدب زخرفة وتزييقا وقرقرة شنان، من دون معنى عميق أو فكر فتيق، وانزوت فى دور العلم- آن ذاك - وما أقلها! - ولانقرضت، عندما خطط الأتراك لمصادرتها، وإحلال اللغة التركية، مكانها، فيما سُمى بموجة (التتريك) - ولانقرضت، عندما خطط الاستعمار الإنجليزى (والاستعمار الفرنسى) لانقراضها، حتى لقد وُضِع - مهندسا إنجليزيا - اسمه (ول كوكس) كتاب قواعد للهجة المصرية العامية، محاولة منه (وحسب مخطط مرسوم) صرف الناس عن الفصحى إلى العامية- ولانقرضت،

والاستعمار الأمريكي الحالى يشجع بعض الشيوخ، ممن يغريهم الأصفر الرنان (أجل - بعض الشيوخ) للتحدث والشرح والتفسير والقص باللهجات المحلية، إبعادا للناس عن الفصحى، ومن هؤلاء الشيوخ من - أثرى - من وراء ذلك!!
 وحجتهم.. أن العامة لا يفهمون الفصحى. وهذا.. كذبٌ وميّنٌ؛ لأنه لم يعد، بعد انتشار وسائل الإعلام والاتصال الحديثة - عامةً أو عوامٌ، بل أصبح الناس، حتى الأميون، مثقفين.. (وما أغلظ أكباد الذين يسمّون الذين يتظاهرون ضدّ الفيلم المسيء للرسول المعصوم: راعا وغوغاءا، لأن وسائل الاتصال الحديثة لم تترك راعا وغوغاءا - بل أوجدت مثقفين، وإن كانوا أميين). ولأن مهارة - سماع - الفصحى أصبحت ناميةً، عند العوام، وعند رعاة الأغنام، وعند عمال المزارع، والمعادن، حتى، إذا سمع أحدهم نشرة الأخبار من المذيع عاد فى المساء، يقول لأهله ما سمع، وهى تذاع بالفصحى لا بالعامية.

العربيةُ عصيةٌ على الزوال لأسباب أربعة، هى:
 - الأول: أن القرآن الكريم يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ ﴾ - [الحجر- 9] وحفظ الذكر لا يعنى حفظه محنطاً بين دفتي كتاب. وإنما يعنى تحقق مقاصده فى الحياة، من حيث تنظيم الحياة، وذلك.. لا يكون إلا بقراءته وتفهمه، ولن يكون ذلك بغير العربية الفصحى، لأن (روح القرآن) لا تتبدى إلا بالعربية - أما الترجمات فهى معانٍ بلا روح، ترجماتٌ جسيده فقدّ الحياة، لهذا.. فحفظ الله تعالى الذكر (القرآن) حفظاً للعربية، وبالعربية.

- الثانى: أن العربية الفصحى لغة (إلهامية) - ألهمها الله تعالى العرب، فى شمال الجزيرة، قبل الإسلام، بقراءة منتهى سنة، (ولهذا حديث تفصيلى فى مكان^(١)) آخر، ولذا.. فقد جعلها الله خالدة الأصول، بحيث تُبنى عليها فروع، فلا تزول ومن أدلة ذلك:

(أ) أنه لم يوجد أثر قيل منتهى سنة، من الإسلام، فيه شعر فصيح أو نثر أو يتصل بالفصيح. ب- أنها لغة اشتقاقية ذات أصول ثابتة، فى العربية، يمكن أن تولد من الفعل (كتب) مئة كلمة، عندما تستدعيها المعانى الجديدة. أما فى الإنجليزية - مثلا - ف (كتب وكاتب) لهما أصوات، ومكتبة - لها أصوات أخرى - ومكتب - له أصوات

(١) فى القسم الثانى من هذا الكتاب.

ثالثة... وهكذا - ت- العربية... يشترك من كل كلمة منها، ولو كانت حرفاً؛ أما نقول: هوية - من: هو. و - عَنَعَنَ - من: عن، عن، عن، وأستحجر من (الحَجَج) وهي كلمة جامدة، بل نقول: تاوّة، من - شِبْهِ الفعل - آه - ت - وتتسم الفصحى - بالخِفة التي لا تتسم بها لغة أخرى، فلا تجمع حروفاً، في الكلمة الواحدة، يعسر نطقها، ولا توالي بين - حرفين ساكنين - خلافاً للإنجليزية التي تجمع حرفين، بل وثلاثة حروف ساكنة متواليّة... إلخ.

- السببُ الثالثُ: أن اللغة الوحيدة في العالم التي عاشت - سبعةَ عَشَرَ قرناً، وما تزال - حيةً - بعد نضجها، هي العربية الفصحى. أما اللغات الأخرى.. فلا تعيش إلا خمسة قرون أو ستة، ثم تتحول إلى لغة أخرى. (ولكن وسائل حفظ الصوت الحديثة.. قد تجعل أعمار اللغات الحديثة - أطولَ، بقرن أو قرنين). وهذا الدليل - إلى الدليلين السابقين - تدل على أن الفصحى خالدة - كخلود القرآن.

- السببُ الرابعُ: نتيجة الأسباب الثلاثة السابقة - فقد تجاوزت العربية، كل المحن والمعوقات، وأضحت إحدى اللغات العالمية، وأضحت لغة أربع مئة مليون عربي، وأكثر من مئة مليون مسلم متفرقين في العالم. - تجاوزت المحن والمعوقات بأن أصبح يصدر فيها كل سنة ما لا يقل - تقديراً - عن مئة ألف كتاب، في موضوعات مختلفة، وفي كل شهر ما لا يقل عن خمس مئة مجلة، وفي كل يوم ما لا يقل عن ألف جريدة. على حين لم يكن عَشْرَ هذا يصدر بها قبل مئة وخمسين - سنة. ومع ذلك.. لم تنتقض آن ذاك!

الخلاصة

أنه، إذا انتظم - العشوائيات العربية (= الدول العربية) مخطط تكاملي واحد - بحيث يصبح لكل - عشوائية - دورها ووظيفتها: في هذا المخطط التكاملي - فإن الأمة ستشعر بعزتها وكرامتها، وستعتز بلغتها، وتمسى المباهاة باللغات الأخرى، من الماضي التعتيس - وستصبح أمة محترمة بين الأمم - لها قراراتها السياسية، والاقتصادية، والأخلاقية والإنسانية. وستصبح عشوائيات هذه المقترحات الجزئية - لبنات في بناء لغوي سامق، تنجذب إليه قبل أن يدعوها، وعندئذ.. سنساهم في بناء الحضارة، وصنع الإنسان الحر - العادل - الإنساني الأخلاقي - المؤمن بالمساواة، بين البشر - والمؤمن بالسلام

العالمى - الذى نخشى أن تُدمره - ترسانات الأسلحة النووية، عندما ينبت حاكم غشوم
كهتلر، يُصيبه هوسُ حُكم العالم أو تدميره - ويكون على رأس دولة عظمى - كأمرىكا، أو
كالصين، أو حتى كروسيا التى تسعى نحوَ - القيصرَة - واللّه تعالى هو الصارف للقلوب
عن الشرِّ إلى الخير البعيد.

الموضوع الثامن

الألفاظ الاصطلاحية الشرعية في القرآن الكريم وهل حدث لها تطوّر دلالى؟^(١)

صدر قبل شهر كتاب قيّم لصديقى الأستاذ (عودة خليل أبو عودة)، عنوانه: (التطوّر الدلالى بين لغة الشعر الجاهلى ولغة القرآن الكريم) وقد عشت مع هذا الكتاب أوقاتا ممتعة، لأنه يعرض لموضوع لم يُقلّ الذين كتبوا فيه تفصيلا تقف عنده النفس، وقد شفى غليلها. فقد عرض القدامى لأطراف من هذا الموضوع ولكن لم يستوفوا. وأهم كتاب قديم عرض للتطور فى الدلالة فى القرآن الكريم والحديث الشريف - مقارنةً - بالشعر الجاهلى، هو كتاب: (الزينة فى الكلمات الإسلامية العربية) لمؤلفه أبى حاتم الرّازى المتوفى سنة (٣٢٢) هجرية، غير أن كتاب الأستاذ عودة أوضح منهجا وأكثر استيعابا لمادة الموضوع، مع إضافة منهجية قيّمة؛ فقد قَسَم المصطلحات القرآنية إلى مجموعات، تَبَعاً لموضوعها فمنها مصطلحات فى العقيدة، وأخرى فى أركان الإسلام، وثالثة فى الجهاد والسلوك.. إلخ.

وقد صبر الكاتب وثابر على تتبّع ما ورد فى المعاجم والشعر الجاهلى فنظر فى حوائىّ مئتين وخمسين كلمة (٢٥٠)؛ كل منها كانت اصطلاحا فى الإسلام. وقد عرض - بذلك - معلومات كثيرة شائعة حول كثير من الألفاظ، ثم اختار منها المعنى اللغوى الذى يصلها بمعناها الاصطلاحى^(٢) الإسلامى، طبقاً لأحد أساليب تطور الدلالة؛ هذه الأساليب (أو القوانيين) الموصوفة. فى كتب فقه اللغة، وكانت نظرتة نافذة فى معظم الحالات، بحيث اهتدى إلى السياق المعنوى واللغوى الجاهلى يناسب المعنى الاصطلاحى الإسلامى هذا هو الأصل الملحوظ فى عمل صاحب الكتاب.

(١) كتبت سنة - ١٩٩٢م.

(٢) الله تعالى أنزل كلامه - بدءاً - لمعانيه. وإنما سُمى العلماء بعض الكلمات - مصطلحات - لأن فى العربية الفصحى ألفاظ تماثلها، ولكن لمعنى غير المعنى الذى أنزل الله تعالى. ولكن بين المعنيين للكلمة - صلة - فالزكاة - مثلاً - فى الشرع هى أخذ نصيب معلوم من أموال الأغنياء إلى الفقراء. بيّد أنها فى اللغة تعنى - النماء - وبين المعنيين - صلة - فالزكاة من أسباب نموّ المال، قال تعالى: [يمحّق الله الرّبا، ويُرَبّى الصدقات] - (البقرة - ٢٧٦).

بَيِّنْدَ أَنِّي وَقَفْتُ عِنْدَ «الصَّلَاةِ» الْمَعْنَوِيَّةِ وَاللُّغَوِيَّةِ، الَّتِي اخْتَارَهَا فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ، فَلَمْ أَجِدْ مُجْمَلًا اجْتِهَادَ الْكَاتِبِ مُقْنَعًا، وَأَخَذْتُ، عَلَى ذَلِكَ، مِثْلًا وَاحِدًا؛ كَلِمَةً مِنْ أَشْهُرِ الْأَصْطِلَاحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَأَهْمُهَا فِي الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَهِيَ كَلِمَةُ «الصَّلَاةِ». إِنْ الْكَاتِبُ يَعْضُ مَا جَاءَ عَنْهَا فِي كُتُبِ اللَّغَةِ وَفِي الشُّعْرِ الْجَاهِلِيِّ، وَفِي كِتَابِ مِنَ الْمَوْلَفَاتِ الْحَدِيثَةِ كَذَلِكَ، عَلَى مَدَى صَفْحَتَيْنِ وَنِصْفِ صَفْحَةٍ، ثُمَّ يَخْلُصُ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الصَّلَاةَ لَمْ تَكُنْ بِمَعْنَى صَلَوِيٍّ الْفَرَسِ أَوْ الْفَرَسِ الَّذِي يَأْتِي، فِي السَّبَاقِ، تَالِيًا لِلْجَوَادِ السَّابِقِ، وَأَنَّهَا «لَمْ تُوْخَذْ مِنْ الصَّلَاةِ أَوْ اللَّزُومِ، كَمَا ذَكَرْتُ بَعْضَ الْآرَاءِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنَ الصَّلَاةِ الْقَرِيبَةِ بَيْنِ الصَّلَاةِ - بِمَفْهُومِهَا الدِّينِيِّ - وَبَيْنِ الصَّلَاةِ وَاللَّزُومِ. وَرَبْمَا تَأَثَّرَ أَصْحَابُ هَذَا الرَّأْيِ بِبَهِيئَةِ الصَّلَاةِ وَمَعْنَاهَا فِي الْإِسْلَامِ، وَقَرَنُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ كَلِمَةِ «صَلَاةٍ» بِرَغْمِ (الْفَرْقِ) اللَّغَوِيِّ بَيْنَ صَلَوَى وَوَصَلِ. ثُمَّ يَقُولُ: «وَأَرْجَحُ أَنَّ الصَّلَاةَ فِي مَعْنَاهَا الْإِسْلَامِيَّةِ، مَأْخُودَةٌ مِنْ مَعْنَى «الدَّعَاءِ وَالطَّلْبِ وَذَلِكَ لِلصَّلَاةِ الْقَرِيبَةِ فِي الْمَعْنَى بَيْنَهَا بَيْنَ الدَّعَاءِ وَالطَّلْبِ. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ اسْتَعْمَلَ مَا اسْتَعْمَلَهُ الْعَرَبُ فِي شُعْرِهِمْ، إِلَّا أَنَّ الْقُرْآنَ خَصَّصَ الصَّلَاةَ بِالْبَهِيئَةِ الْمَعْرُوفَةِ، فَأَصْبَحَتْ هِيَ الرُّكْنَ الشَّهِيرَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ. وَأَشَدُّ مَا يَدْعُمُ هَذَا الرَّأْيَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ اسْتَعْمَلَ لَفْظَ «صَلَوِيٍّ» بِمَعْنَى الدَّعَاءِ» ص ١٨٢، ١٨٣.

أَقُولُ : وَاضِحٌ أَنَّ الْكَاتِبَ رَجَّحَ أَنَّ مَعْنَى الصَّلَاةِ، فِي مَفْهُومِهَا الْإِسْلَامِيَّةِ، مَأْخُودٌ مِنْ مَعْنَى الدَّعَاءِ وَالطَّلْبِ وَلَكِنَّهُ بِهَذَا التَّرْجِيحِ يَقِفُ عِنْدَ الْفُرُوعِ وَلَا يَغْوِسُ نَحْوَ الْأَصُولِ. فَمِنْ الْمَعْرُوفِ أَنَّ الدَّعَاءَ وَالطَّلْبَ مِنْ مَعْنَى كَلِمَةِ (الصَّلَاةِ)، وَلَكِنْ.. مِنْ أَيْنَ جَاءَ هَذَا الْمَعْنَى لِكَلِمَةِ (الصَّلَاةِ)؟ لَكِنِّي نَعْرِفُ ذَلِكَ.. لَا بَدَّ مِنَ الْبَحْثِ عَنِ الْأَصْلِ اللَّغَوِيِّ الَّذِي اسْتَقْتَتِ مِنْهُ الْكَلِمَةُ، لِأَنَّهُ الطَّرِيقُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي نَجِدُ عَلَى جَانِبَيْهَا سُلْسُلَةَ الْمَعَانِي الَّتِي تَوْصَلُنَا إِلَى مَعْنَى الدَّعَاءِ فِي الصَّلَاةِ، ثُمَّ إِلَى مَعْنَى هَذِهِ الْعِبَادَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ - فِيهَا - . عَلِمْنَا أَنَّ كَلِمَةَ - الصَّلَاةِ - نَزَلَتْ - بَدَأًا - بِمَعْنَاهَا الْقُرْآنِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ.

مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى.. فَإِنِّي أَرَى أَنَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ هُوَ «الْوَصْلُ» بِمَعْنَى مَطْلُوقِ الْعِلَاقَةِ أَوْ الرِّابِطَةِ، ثُمَّ حُصِّصَ إِلَى مَعْنَى الْعِلَاقَةِ الطَّيِّبَةِ، ثُمَّ حُصِّصَ، مَرَّةً أُخْرَى، إِلَى مَعْنَى الْكَلَامِ، فِي الْعِلَاقَةِ بَيْنِ اثْنَيْنِ أَوْ فَرِيقَيْنِ. ثُمَّ حُصِّصَ الْكَلَامُ الطَّيِّبُ بِالدَّعَاءِ الطَّيِّبِ، لِأَنَّ الدَّعَاءَ الطَّيِّبَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِلَاقَةِ الطَّيِّبَةِ، ثُمَّ حُصِّصَ، مَرَّةً أُخْرَى ثَالِثَةً، فَأَصْبَحَ نَوْعًا خَاصًّا مِنَ الدَّعَاءِ، وَهُوَ هَذَا الدَّعَاءُ الْمَوْجَّهَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. الْمَفْتَتَحُ بِالتَّكْبِيرِ، الْمَخْتَمُ بِالتَّسْلِيمِ، الَّذِي يَضُمُّ

بينهما قراءة من القرآن، وعبارات معلومة، وحركات معروفة وهذا الدعاء الموجّه إلى الله تعالى هو (الصلاة)، أقول هذا.. لأن تطور اللّغة، فى المعنى، من العام إلى الخاص ثم إلى الأخص، أوسع من تطورها فى الاتجاه المعاكس. وهذا.. يتفق والتطور، العلمى والعقلى، الذى يسير فى اتجاه التدقيق، والتخصيص، والتفصيل، وإن كان التطور من الخاص إلى العام.. يقع، أحيانا. علما أن - الصلاة - الإسلامية .. لم تتطور من المعانى السابقة، بل السابقة - بينها وبين الصلاة - صلة - وليست الصلاة - متطورة عن هذه المعانى، لأن الصلاة من كلام القرآن - الذى هو كلام الله - السابق على - إلهام - الله تعالى العرب .. العربية الفصحى - وكلام الله صفته، وصفات الله قديمة - والعربية الفصحى.. حادثة، ولا يتولد القديم أو يتطور من الحادث.

أما من حيث اللفظ.. فإننى أرى الأصل اللغوى للفظ «الصلاة» هو «الوصل»، لأن الصلاة هى كما سلف، نوع من أنواع الوصل أو البلوغ. ولكنه لم يُشْتَقَّ من الفعل «وصل»، فى الترتيب الذى وردت عليه حروفه إنما اشتق من مادته عن طريق ما سبّاه الصرفيون «الاشتقاق الكبير». والاشتقاق الكبير هذا.. يقوم على أساس ارتباطٍ مطلقٍ غير مُقيّدٍ بترتيب، بين مجموعات ثلاثية صوتية ترجع تقاليبها السّنة، وما يتصرف من كل منها. إلى مدلول واحد عامّ مهما تغاير ترتيبها الصوتى. من ذلك - مثلا - المادة ذات الحروف الثلاثة (س م ل). هذه المادة قلبها العبقري ابنُ جنى فى كتابه «الخصائص»، فرأى أنها تتفرع إلى الأصول الفعلية التالية: (سَمَلٌ ثم سلم ثم ملس ثم لمس). وهذه تقاليب مستعملة. ثم يأتى منها تقليبان مُهملان هما (مَسَلٌ ثم لَسَمَ). والمعنى العام لهذه التقاليب هو (الإصحاب والملاينة) - (الخصائص ١/٥٢٩).

وإن (وَصَلَ).. على المبدأ نفسه، يأتى منها بضعة تقاليب هى (وَصَلَ ثم صال، وِصَوْلٌ ثم وُلَصَ ثم لصا، وأصلها: لَصَوًا، ثم لاصًا، وأصلها: لَوْصًا ثم صلا وأصلها: صَلَوٌ والمعنى العام لهذه المادة، فى تقاليبها السّنة، هو: الارتباط والبلوغ.

والفعل (وصل) هو أصل المادة، ومعنى وصل الشيء بالشيء: ربطه به أو لأمه به، ومعنى صال على قِرْنِه: سطا، وقاتل، والسطو والمقاتلة فيهما بلوغ وارتباط بين طرفى المفاعلة ومعنى لصا إليه: انضم إليه، والانضمام بلوغ وارتباط. ومعنى لاص: لَمَحَ من خلل الباب ونحوه، وإذا لمحت الشيء فقد بلغه بصرك.

ومعنى (صلا): هو البلوغ والارتباط، علي نحو ما، يقول ابن منظور في معجم (لسان العرب)، فى مادة (صلا): «وَصَلَوْتُ الظَّهْرَ: ضَرَبْتُ صَلَاةً، أَوْ أَصَبْتَهُ بِشَيْءٍ، سَهْمٍ أَوْ غَيْرِهِ..» والصلا (هو موضع العظام الأخير فى الظهر أو هو أحد العظمتين اللتين تكتفان الذنب من الناقة وغيرها). وَضَرَبُ (الصلا) وإصابته فيه بلوغ له أو اتصال به.

ولكى نصل مادة هذا الفعل بالاتصال، على النحو الذى انتهى إليه فى الصلاة الإسلامية المعروفة.. نرى أنه مرٌ بعدة تطورات معنوية حتى انتهى من الاتصال بالضرب إلى الاتصال بوسائل أخرى غير الضرب، وبعيدة عنه وسائلٌ روحيةٌ وماديةٌ. بل قد يكون الذى حدث فى التطور أنه لُمِحَتْ علاقة الاتصال دون غيرها، ثم أُخِذَتْ - دَفْعَةً واحدةً - من الاتصال بالضرب إلى الاتصال بالدعاء والاسترحام والثناء. على أن ذلك كله.. لم يَجْرِ على الفِعْلِ الثلاثي وإنما جرى على مضعفه الرباعى، أى: إن هذه المعانى اللاحقة قد ارتبطت بالفعل (صَلَّى) لا بالفعل (صلا). ثم وَرَدَ هذا الفعل عند نزول الإسلام، بمعناه الاصطلاحى المعروف، ولا سيما فى حالة الإطلاق وليست الصلاة سوى (دعاء، واسترحام، وثناء).

ومما يؤكد أن (الصلاة) مشتقة من الفعل (صَلَّى)، وهو مُضَعَّفُ الفِعْلِ الثلاثي (صلا، وَأَصْلُهُ صَلَوٌ).. أن صاحب (لسان العرب).. يورد لفظ (صلا) ثم يورد، بعده، مباشرة قوله: «الصلاة: الركوع والسجود». وهذا يعنى أن هذا العالم الكبير يرى أن الصلاة مشتقة من مادة الفعل (صلا)، وإلا.. لما أوردها فى شرحه لمعنى لَفْظَةِ (صلا).

خلاصة ذلك.. أن لفظ (الصلاة) مُشْتَقٌّ من مادة (وصل) فى أحد تقاليبيها وهو (صلا)، عن طريق قاعدة (الاشتقاق الكبير)، بعد تضعيف هذه الصيغة إلى رُبَاعِيَّهَا (صَلَّى). والصلاة هى اسم المصدر، أما المصدر فهو «تصليّة» وهو مهمل مع هذه المادة، غير أن صورته استعملت مع معنى آخر لمادة (صَلَّى)، كما ورد فى القرآن الكريم: ﴿وَتَصَلِيَةٌ جَمِيْرٌ﴾ [الواقعة: ٩٤] أى: إحراق بالنار.

على هذا.. فإننا نجد صلة ما بين لفظ «المُصَلِّي» وهو الحصان الذى يأتى تاليا «للمجلى» والمجلى هو الحصان السابق) وبين لفظ الصلاة.. لأن الحصان المصلى يكاد يتصل بصلا سابقه المجلى أى: يكاد يبلغه. لأن اللفظتين: (الحصان المصلى، والصلاة) مُشْتَقَاتان من أحد تقاليب أصل لغوى واحد.. يكون بين أفرادها جميعها.. معنىً عام مشترك، ثم يختص

كل واحد منها بخصوصية فى المعنى ، تميّزه من غيره منها. فكيف إذا كان اللفظان يعودان إلى أحد التقاليد عَيْنِهِ؟ إن الفرق لن يكون إلا من جهة اختلاف الصيغة ومن جهة تغير الدلالة، فى تخصيصها بمعنى محدد والشخص المصلى (الذى يقيم الصلاة) هو شبيهه بالحصان المصلى = الحصانُ المصلى كان يتصل بصلا سابقة. والشخص المصلى يحاول أن يتصل - روحيا - بالله تعالى.

ولكن.. ليس من علاقة - فى الاشتقاق أو المعنى - بين الصلاة وبين الفعل (صلى) الذى آخرُهُ ألف مقصورة، وما يشتق منه من صيغ، لأنه بمعنى: عَرَضَهُ على النار. ولا بينهما وبين الفعل (صَلَّى) الذى آخره ياء، وما يشتق منه، لأنه بمعنى: تَدَفَأَ. ويجدر أن نذكر.. أن الأصل هو أن تُخَصَّص الكلمة، فى الفترة الواحدة، لمعنى واحد، لأن دقة الفكر تقتضى ذلك، ولكن يحدث أن يكون للكلمة الواحدة، فى الفترة الواحدة، أكثر من معنى فيتعايش المعنيان أو الثلاثة، إلى حين، أولا - لأن المعنيين يتصارعان - وقتا - حتى يتغلب أحدهما على الآخر، وغالبا ما يتغلب الجديد، وثانيا - لأن إيجاد لفظ جديد للمعنى الجديد يكون كالمتعذر، أحيانا. وثالثا - لأن الاستسهال يقود إلى الاكتفاء باللفظ القديم، وفى أحيان قليلة.

وبعدُ:

فإن كتاب (التطور الدلالي - بين لغة الشعر الجاهلى ولغة القرآن الكريم) من الكتب الجادة التى تستحق التنويه لأن مؤلفه بذل جهودا كبيرة فى جمع مادته، وفى تصنيفها، وفى مناقشتها، ليخلص من ذلك إلى ما يراه أدنى إلى الصواب.

ثم.. لأن الكاتب قد صنّف الألفاظ فى مجموعات، حسب المعانى.. فإن كتابه يُعدُّ «معجمَ معانٍ» مُتخصّصا فى الألفاظ الاصطلاحية فى القرآن الكريم.

بيد أنى أرى العنوان ليس دقيقا، لأنه يُشعر بأن ها هنا مقارنةً بين تطور الدلالة فى الشعر الجاهلى، وبين تطورها فى القرآن الكريم، والأمر ليس كذلك. لأن الكتاب يعرض لألفاظ كان لها معنى فى الشعر الجاهلى، ثم.. جاء لها معنى آخر فى الكتاب العزيز، أقول: وهذا ليس تطورا مفتوحا، وإنما هو تكوّن اصطلاحى/ شرعى، وليس تطورا للمعنى اللغوى، من معنى إلى معنى. فكان من واجب العنوان أن يتضمن إشارة إلى هذه الخصوصية الشرعية فى الدلالة. والله تعالى يتولى العاملين لوجهه الكريم.

وبهذا.. فقيمة هذا الكتاب الأولى تأتي من أنه «إحصاء» وافٍ للكلمات التي استعملها القرآن الكريم اصطلاحيا، فأنزل لها معنىً شرعياً يُفارق معناها اللغوي الذي عُرف لها في الشعر الجاهلي بعض مُفارقة لأن ألفاظ القرآن لم تتطور من الشعر الجاهلي فهي مستقلة عنه - كما سبق القول. ثم.. تلا هذه القيمة قيم أخرى، قد أشرنا إلى بعضها.

الموضوع التاسع

أحقًا - أن القرآن الكريم.. أنزل باللغة العربية الفصحى؟

- قرأت كثيرا مما قيل عن أن القرآن الكريم نزل باللغة العربية الفصحى. ومع طول تأملى وتدبّرى للأمر - وجدتُ - مع كل ما قيل - أنه لا يزال في نفسى شيء من «حتى»، أى - لا يزال في نفسى شيء من هذا القول: أَوْضَحُهُ فيما يأتى: ، فالقول بالتطور الدلالى بين الشعر الجاهلى، والقرآن الكريم.. غير مقبول عندى، كما جاء فى عنوان كتاب لزميلنا الدكتور عودة أبو عودة لأن التطور من عصر إلى عصر، أو من موضوع إلى موضوع، أو من شاعر (أو أديب، على العموم) إلى شاعر، بينهما فترة زمنية معتبرة - التطور هذا.. من حيث دلالة الألفاظ.. شىء طبيعى فى مثل ما ذكرتُ.. أمّا أن تُذكَرَ كلمة «التطور» بين الشعر الجاهلى مثلا، وبين القرآن الكريم، فتصوّر خاطئ، ولفظ ومعناه.. خاطئان.

- ذلك.. لأن القرآن لم تتطور لغته من لغة الشعر الجاهلى، أو من اللغة العربية قبل نزول الإسلام. وإنما القرآن، لغته مُستقلة عن لغة الشعر الجاهلى، وعن اللغة العربية. وإذن.. دلالاته ليست تطورا من دلالات الشعر الجاهلى، إنما هى أنزلت، من اللوح المحفوظ - حاملة معانيها اللغوية والشرعية، ولا علاقة لها بمعانى الشعر الجاهلى وألفاظ الشعر الجاهلى.

- ولكن.. كيف ذلك؟

- الجواب.. كما يأتى:

١- معلوم أنه وَقَعَ خلاف خطير، فى التاريخ، حول القرآن الكريم، بين المعتزلة (وهم إحدى فِرَقِ السُّنَّة) وبين الأشاعرة - وهم أهل السُّنَّة، حول مسألة (خَلَقَ القرآن) - المعتزلة الذين قَدَمُوا العقل على النقل - قالوا: القرآن.. مخلوق. أما أهل السُّنَّة، فقالوا: القرآن كلام الله تعالى، وكلام الله.. قديم (ولا يصح أن يُعَدَّ مخلوقا). حتى وقعت مِحْنَةُ (خَلَقَ القرآن) فى زَمَنِ حاكم المسلمين؛ آن ذاك - المأمون - فقد امتَحَنَ المعتزلة الذين أدناهم المأمون، إذ اعتنق مذهبهم - عشرات العلماء. وكلهم يقول - كما يريد المعتزلة - القرآن مخلوق، لكى ينجوا من العقاب، ومن قطع الأرزاق والأسباب! - حاشا نفرا قليلين، منهم الإمام أحمد

ابن حنبل^(١) - رضى الله عنه - وشيخه الذى مات فى السجن - يرحمه الله .
 - والحق.. أن القرآن كلامُ الله، وكلام الله قديم، لا أولُ له، لأنَّ كلام الله تعالى.. صفة من صفاته، ولا فرقٌ - عندى - بين الذات والصفات، فصفات الله تعالى قديمة أزلية. وليس هنا سياق التفصيل - فيها.

٢ - وكلامُ الله تعالى.. ليس ألفاظا متفرقةً - كالألفاظ فى المعجم - يُضَمُّ بعضها إلى بعض فى تعابير وتراكيب - لكى تعبّر عن معان وأفكار - كما يفعل البشر، بشكل عام. بل - كلام الله تعالى هو معان مُلتحمةٌ بألفاظها، فلم تُكُنْ المعانى، أولا، ثم عُبِّرَ عنها بالألفاظ، وليست ألفاظا متناثرة، ضُمَّ بعضها إلى بعض، عندما جذت المعانى لتعبّر عنها. وإنما المعانى والألفاظ، سبيكة واحدة لا انفصام لها.

- واذن.. القرآن الكريم شيء، واللغة العربية شيء آخر. القرآن الكريم.. قديم، أما اللغة العربية فحادثة على الأرض - ألهمها الله تعالى العرب إلهاما - كما وضعنا ذلك فى ثلاثة بحوث نشرت - بأدلتها - فى مجلة (هدى الإسلام - الأعداد - ٥، ٦، ٧) لسنة - ٢٠٠٥م. فكيف يكون القديم مأخوذا من الحادث؟ هذا.. أمر يتناقض مع «بنيّة» العقل - أصلا.

- وهنا.. يأتى تساؤل: أليست ألفاظ القرآن موجودةً مثلها فى اللغة العربية؟
 - الجواب.. أجل -

ولكن وجود مثل ألفاظ القرآن فى ألفاظ العربية.. لا يعنى أكثر من وجود «مماثلة»، فإذا قال الله تعالى - مثلا - فى أول خمس آيات، نزلت على قلب رسولنا العظيم ﴿أَقْرَأْ بِآيَاتِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (العلق - ١) فهذه الكلمات الست.. موجودٌ مثلها فى ألفاظ العربية، لكنه وجود مماثلة، وليس وجود «استعانة»، لا القرآن استعان بألفاظ العربية، ولا العربية استعانت بألفاظ القرآن، - إلا بعد نزوله. فمن غير المعقول - مثلا - أن تكون الألفاظ التى استعملها الجاحظ، قد أخذها من ألفاظ طه حسين، والجاحظ مضى إلى رحمة ربه قبل أن

(١) الإمام أحمد - ابن - حنبل. كلمة (ابن) - أينما وردت، سواءً أكانت بين علمين أم لم تكن.. أكتفيها مبدوءة (بألف). لأن حذف الألف منها فى بعض الحالات قد جعل إملاها صعبا لأنه جعل لها أربع قواعد، من غير أن يكون لحذف الألف «علة» منطقية.

وسبب خطأ فى قراءتها، فالمغاربة - مثلا - يصوتون (بن بركة - بن جديد) بدل (ابن بركة - ابن جديد). فإذن.. إبقاء الألف، فى أولها، دائما هو إصلاح إملائي. وهى لا تصوت فى ذرج الكلام مثل ألف (القمر) - فلماذا لا نحذف ألف القمر، ونحذف ألف (ابن)؟ أين المنطق فى هذا التعارض؟

يبدأ طه حسين الكتابة بحوالي عَشْرَةِ قرون. وإذن، العلاقة بين ألفاظ الجاحظ، وألفاظ طه، عندما يكون النظر إلى ألفاظ الجاحظ، هو مُجَرَّد ماثلة ليس أكثر. وإذن.. الجاحظ لم يأخذ، ولا لفظة واحدة من طه. (أما طه فأخذ من ألفاظ الجاحظ، ومن أسلوبه كثيرا، لأنه متأخر عنه. وهذا.. شيء معقول وطبيعي - أن يأخذ اللاحق من السابق).

- يضاف إلى هذا أننا نتجوّز عندما نقول: ألفاظ القرآن.

- والصواب هو (كلام القرآن)، لأن الألفاظ فيه.. لا ينفصل بعضها عن بعض - كما لا تنفصل حروف الكلمة - بعضها عن بعض - إذا أردنا أداء معنى. ولهذا.. فهل في (كلام) اللغة العربية.. شيء يماثل (كلام) القرآن، حتى لو كانت الماثلة - بجملة واحدة فقط. لأن التماثل - عندئذٍ.. - لا يكون معناه.. إلا الاقتباس من نصّ القرآن. ولا يحتمل وجها آخر. وهذا الأمر - فيصّل - في الحكم بأن القرآن شيء، وأن اللغة العربية شيء آخر. اللغة العربية.. ألفاظ في (المعجم) يُضَمُّ بعضها إلى بعض لتأليف (كلام) ذي معانٍ، قد تكون هذه المعاني جيدة أو رديئة. أما القرآن.. (فكلام) - لا ألفاظ - كلاً مُترابطة ترابطة كاملا مع معانيه - التي هي دائما معانٍ في (الذروة) التي لا تُبارى، ولا تُجارى، لأنها (بالفاظها) كلام الله تعالى الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ - ٤٢].

- وتساؤل آخر: أما قال الخليفة عثمانُ ابنُ عفانَ - رضى الله عنه - عندما أمر بتوحيد رسم المصاحف (وما يتبع تعدد الرسم، من اختلاف في القراءات) - في رسم واحد، (سُميَ، بعد ذلك: الرسم العثماني). فقال للجنة الرسم: (إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بِلَهْجَةِ قَرِيْشٍ، فإنما القرآنُ بها أنزل). فما معنى قوله: (فإنما القرآن بِلَهْجَةِ قَرِيْشٍ.. أنزل)؟

- الجواب.. ليس من المفروض أن عثمانَ كان يتعمق التفكير، في القرآن، وفي اللغة التي أنزل بها - ذلك.. لأن العقل العربي لم يكن قد وصل إلى مرحلة «التحليل» بعد، بل كانوا يأخذون الأشياء من أقرب ما أتى ويلمحون الحكم - لمحا. ومن المعروف أن الفرق الإسلامية التي كان عندها - بعض - التحليل الفكري، لم تنشأ إلا بعد استشهاد الإمام على ابن أبي طالب - رضى الله عنه - وقول عثمان (ومثله ما لا يحصى من المسلمين) لا يعنى أكثر من التشبيه بسبب التماثل - من دون غَوْصٍ إلى الأعماق.

- إذن.. عثمان - رضى الله عنه - وجد أن معظم ألفاظ القرآن - مُماثِلَةٌ - لألفاظ في

لغة قريش.. فكان قوله قائما على هذه المماثلة الظاهرية- ليس أبعد. أقول: ولكن المماثلة ليست فيصلا بأخذ أحد المتماثلين من الآخر، بل -الأخذ مستحيل عندما - يُتَوَهَّمُ - أن النص السابق قد أخذ من اللاحق، لمجرد المماثلة.

- وأقول: صحيح أن اللغة العربية -ألهمها الله تعالى- إلهاما، للعرب، ذلك لكي تكون خالدة، من أجل أن تصلح لحمل القرآن الخالد. ولا يعقل أن يُعَبَّرَ عن خالد بفان. وبهذه المماثلة بين هذه اللغة الخالدة، وبين ألفاظ القرآن - يظلُّ الناس على طول الدهر.. قادرين على فَهْمِ القرآن الخالد، وعلى تفسيره. ولكن هذا التماثل لا يصح، بسببه - عند العقل- أنه يؤدي إلى نتيجة، فحواها أن السابق قد أخذ من اللاحق، بل - العقل ينفي ذلك نفيًا قاطعا.

- النتيجة الأولى من هذا.. أن اللغة العربية ليست أصل القرآن، وأن القرآن ليس أصل العربية، مع وجود المماثلة. لأن القرآن كلام الله تعالى، وكلام الله تعالى لا يُؤخَذُ من كلام ألهمه البشر.

- والنتيجة الثانية أن القرآن قديم، وأما اللغة العربية فحديثة. وإذن.. القرآن الكريم لم ينزل باللغة العربية - قطعاً. مع قيام المماثلة بين ألفاظ القرآن، وبعض الألفاظ باللغة العربية- (علما أن ألفاظ القرآن لا تساوى - بالتقريب- أكثر من أربعين بالمئة من ألفاظ العربية (٤٠٪). أما أنواع تراكيب القرآن - فتكاد تماثل كل أنواع التراكيب في العربية. لأن الذي يحفظ للغة شخصيتها - بالدرجة الأولى، هو التراكيب، ثم تأتي الألفاظ. بيد أن التعبيرات في القرآن مسبوكة^(١) - سبكا فريدا لا تماثل بينها، وبين تعابير العربية، أبدا. وهذا.. أحد وجوه الإعجاز في القرآن.

والنتيجة الثالثة أن ألفاظ القرآن وتراكيبه فصيحة، مئة بالمئة (١٠٠٪) - أما ألفاظ العربية وتراكيبها.. ففصيحة بنسبة خمس وتسعين بالمئة (٩٥٪) - تقريبا، لأن بعضا من ألفاظ العربية.. حوشي. وقد يكذب بعض الأعراب، أو بعض عرب البادية - في روايته - طلبا للمال، أو للشهرة. ومثل ذلك في التراكيب، فقد يتكلف البدوي، ما ليس

(١) (مسبوكة سبكا) - ما اصطُح عليه، منذ الجاحظ أنهم قالوا (نظم القرآن). بيد أن كلمة (نظم) لها معنى آخر، وهو المنظومات الشعرية، أي - هي الكلام الموزون المقفى الذي ليس شعرا فنيا. ومع أن الكلمة يمكن أن تأخذ معنيين، وأكثر - كلها.. بينها علاقة. غير أني فضلت استعمال كلمة (سبك) القرآن، بدلك (نظم) القرآن، تنزيها له عما تُشِيرُ به كلمة النظم من أنها تدل على كلام لا جمال فيه، كنظم- التون.

صحيحا من التراكيب ، أو هو صحيح ، ولكنه معقد ، نظرا لخشونة بعض البيئات البدوية ، فلا يعود صالحا للبيئة الحضارية .

- النتيجة الرابعة .. أنه ، لو أنزل القرآن باللغة العربية - فإن معنى ذلك أن الله تعالى - تَنَزَّهَ - كانت لديه مَعَانٍ ، ثم .. استعار لها ألفاظا من اللغة العربية ، لكي تظهر هذه المعاني بهذه الألفاظ ، وهذا .. غير مقبول من ناحيتين : - الأولى .. أن القرآن بهذا المعنى - حاشاهُ - حادث . ومن المعلوم أن القرآن قديم ، لأنه كلام الله تعالى . والناحية الثانية .. أن المعاني التي تتولد بغير أن تقوم بلغة ، ثم تُؤخذ لها ألفاظ من لغة - ما - فإن التطابق التام لن يكون كاملا بين معنى العبارة ، أو الجملة ، أو الفكرة - وبين الألفاظ المعبر بها عنها ، لأن من شروط البلاغة - عند البشر - أن يبرز اللفظ في اللحظة التي يبرز فيها المعنى - الجزئي ، أو الكلي - وكلما كان بزوغهما أقرب إلى أن يكون بلا فاصل زمني بين بزوغ المعنى وبزوغ اللفظ - كان الكلام أعلى في درجة البلاغة . فأساليب البشر لا تبلغ الكمال المعجز كالقرآن .

- وإذن .. فكيف يمكن تصوُّر فاصل زمني - مهما ضُوِّل - بين المعاني ، والأفكار ، وبين الألفاظ التي عَبَّرت عنها في القرآن؟ إن ذلك لا يتفق أبدا مع «سَبِّكَ» القرآن - المعجز؟ - إن العقل .. لا يقبل أن يكون الكلام «معجزا» يتفوق على قدرات البشر - تَفُوقًا يستحيل الاقتراب منه - بَلَّةُ اللحاق به - ثم .. يُبنى على مرحلتين - مرحلة قيام المعاني ، تليها مرحلة التعبير عنها بكلام .

- وإن مثل هذا التصوُّر .. لا يليق أن يجري معه مُؤمن ، لأنه لا يتفق ، بحال من الأحوال ، مع قدرة الله تعالى الذي وصف نفسه بأنه : ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج - ١٦] .
- الله تعالى الكامل - المطلق الكمال - كل صفاته كاملة - كمالا مطلقا . وكلام الله تعالى صَفْتُهُ - فِكَلَامُهُ كَامِلٌ - كمالا مطلقا . والكمال المطلق لا يَصِحُّ معه إلا أن كلام الله تعالى لا يجري عليه ما يجري على كلام البشر ، فكلام الله ذو - سَبِّكَ - بلا زَمْنٍ ، فالكلام الذي قامت به المعاني الجزئية والمعاني الكلية ، هو الكلام الذي قام بالمعاني - كما قامت به المعاني - فلا يجوز تصوُّر أحدهما دون تصوُّر الآخر . إن القرآن - لفظا ومعنى - سبيكة واحدة ، لا يمكن (أو - لا يجوز) تصوُّرها إلا بما هي عليه .

يضاف إلى هذا أن القرآن حَكَمٌ على العربية الفصحى ، وليست هي حكما عليه . فلو كان القرآن معاني استعيرت له ألفاظ من العربية الفصحى .. لكانت هي حكما عليه .

وهذا .. لا يقول به عاقل أو عالم. فإذا اختلف في أمرٍ في العربية كان الفيصل في صحته أو خطئه ما ورد في القرآن.

وعلى هذا.. فعنوان كتاب زميلنا الدكتور عودة أبو عودة- خاطي، من وجهة نظر- شرعية، وعقلية -معا. فالقرآن - كما أسلفنا- لم تتطور معاني ألفاظه- الشرعية واللغوية من الشعر الجاهلي، ولا علاقة لها بالشعر الجاهلي، وباللغة العربية - إلا من حيث أنهما - وسيلة- «تفسير - لبعض ما ورد في القرآن، لا في كل ما ورد في القرآن؛ لأن بعضه واضح بنفسه، وبعضه يُوضّح السياق، وبعض منه يُوضّح بعضاً آخر. كتاب الدكتور عودة هذا، أهدانيه قبل ما يقرب من (عقدين)- وهذا الكتاب هو الذى حفزنى إلى كتابة هذا - الرأى- «التأصيلي» الذى أراه - أنا- يضع الأمور فى نصابها - إن شاء الله- ويثبتها فى أبوابها، ويضعها فى محرابها. وعنوان كتاب الدكتور عودة هو: (التطور الدلالى بين لغة الشعر، ولغة القرآن). ولو كان العنوان (الفرق الدلالى) - لجاز.

- سؤال ثالث: القرآن يقول ببضع آيات ما يوضح أنه أنزل باللغة العربية، فما جوابك على هذا؟ مثلاً يقول القرآن: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١٣٠) [الشعراء- ١٩٥]. و(به- تعود على القرآن). ويقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢) [يوسف - ٢] - وقال: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَنْقُونَ﴾ (٢٨) [الزمر - ٢٨]. فماذا تقول فى ذلك؟

الجواب.. بكلمة واحدة (ثم.. يتبعها كلمات): معنى (عربياً) .. (فصيحا)!! فمعنى (بلسان عربى مبين) هو: بلسان فصيح مبين. ومعنى (قرآنا عربياً) هو: (قرآنا فصيحاً). - وأقول - للتفصيل:- فى الآية الأولى (اللسان العربى المبين) لا يعود على القرآن - وَحْدَهُ - وإنما يعود أيضا على الرسول البليغ. أى - لأن القرآن نزل بلغة - فصحي^(١) - معجزة.. فأمر الله رسوله أن ينذر الناس - بلسان عربى مبين- أى - بلسان فصيح مبين، هو لسانك أيها الرسول، ولسان قومك. أما فى الآية الثانية فقولته تعالى: (قرآنا عربياً)

(١) (نزل بلغة - فصحي) - تقول كتب النحو: إن اسم التفضيل، مثل (الأكبر- الكبرى)- إذا تجرد من (أل)- لا يُثنى ولا يجمع، ويبقى على صيغة المذكر. مثلاً: نقول: (سعيد أكبر من سالم) - و(سهيلة أكبر من بشرى) ولا نقول: (كبرى) من بشرى. وهذا.. صحيح.

- ولكن، أينطبق هذا على كلمة (فصحي) عندما يُراد منها وصف اللغة؟ الجواب.. لا. لا ينطبق. لماذا؟ لأن كلمة (فصحي) وصفا للغة انتقلت من -الوصفية- إلى الاسمية. وعلة ذلك أنها أصبحت جزءا من اسم اللغة، وخاصة باللغة، فدائما يقال: (العربية الفصحى) أو (لغة عربية فصحي) للتمييز لها عن اللهجات غير الفصيحة. ولهذا.. فلا توصف بها المرأة، فلا يقال: (امرأة فصحي)- وإنما يقال: (امرأة فصيحة) ولكن، يقال: المرأة الفصحى.

أَتَّبِعَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: (لِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ). فليس من المقبول أن يكون العقل مُتَأْتِيًا من نسبة القرآن إلى (العرب) فليس العرب أعقلَ من غيرهم من الأمم، لكي تكون نسبة القرآن إليهم قائمة على التعقل. ومعنى هذا (لو صحَّ) - أن ما في القرآن من معانٍ تؤدي إلى إدراك الأشياء - معنوية، ومادية - بصورة أفضل، راجع إلى أنه منسوب إلى (العرب)!! وهذا.. لا يكون، ولا يصح.

- يبقى أن نقول: لو كانت هذه النسبة إلى العرب - لكان القرآن - حاشاهُ - مُنحازًا إلى العرب - من ناحية - وكان - من ناحية ثانية - دينًا للعرب - وَحَدَهُمْ - كما أن التوراة هي دين لبني إسرائيل - وحدهم - ولكن هذا مخالف لنصوص القرآن، فالقرآن يقول لرسول الإسلام - محمدٌ ابنٌ^(١) عبد الله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ - ٢٨]، ويقول: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء - ١٠٧].

- ثم.. مما يؤكد أن هذه النسبة هي نسبة إلى الفصاحة أن رسولنا الأوضح يقول: «... أنا أعربُ العرب؛ وُلدت بين قريش واسترضعت في بني سعد ابن بكر. فأنتي يأتيني اللَّحْنُ»^(٢)

- وقد يقال: (عربيا) منسوب إلى اللغة العربية - لا إلى العرب.. والجواب.. أن النسبة إلى - العربية - ليس (عربيا)، وإنما هي (عَرَبِيّ) .. في حالة الرفع والجر، و (عربانِيًا) في حالة النصب. وهذه النسبة كالنسبة إلى (الإسكندرية) فإن النسبة لها هي (إسكندرانيّ) و (إسكندرانيا).

- طبعًا يجوز أن يُنسب إلى اللغة العربية على (عَرَبِيّوِيّ) - كما يجوز أن يُنسب إلى الإسكندرية على (إسكندرِيّوِيّ). ولكن هذه الصيغة أطرحت، بسبب «ثقلها»، لتوالي أربعة حروف عِلَّة، الياء جاءت ثلاث مرّات، يفصل حرف - الواو - وهو حرف عِلَّة - بينها. - وكما أن قوله تعالى: (لِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) لا يصحّ أن يكون التعقل آتيا من النسبة

(١) (محمدٌ ابنٌ عبد الله - صلى الله عليه وسلم) - إن الأليق برسول الإسلام أن يُنَوَّنَ لفظه، فنقول: (محمدًا - محمدٍ - محمدٌ) حتى إذا جاء بعده كلمة (ابن) - لأنه بالتنونين، يكون إعراب (ابن) بعده - (بدلاً) أمّا بعدم التنوين فيكون (ابن) صفة. والشئ الذي يوصف غير واضح بذاته، أما الذي يُبدل منه فيكون واضحاً بذاته، لأن البدل زيادة توضيح للمبدل منه وليس أساسياً في توضيحه، لأن المبدل منه.. واضح بذاته. ولقد سميت (البدل) في كتاب (الرؤى النحوية) - (الموضح) - والمبدل منه - الموضح - ج ٣/ ١٨٠.

(٢) (الهيتمي - مَجْمَعُ الزَّوَادِ - ٢١٨ / ٨).

إلى العرب.. فقوله تعالى، في الآية الثالثة: (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) - كذلك.. لا يصح أن يكون وَصْفُ الْقُرْآنِ بأنه (غَيْرَ ذِي عِوَجٍ) - راجعا إلى أنه منسوب إلى العرب. إذ العربُ فيهم اعوجاج (وفيهم استقامة) كغيرهم من الأمم والأقوام. وإذن.. فالقرآنُ تَنَزَّهَ عن الاعوجاج.. لأنه فصيحٌ - مُبِينٌ، بفصاحته، عن معانيه - المستقيمة العادلة التي تنزهت عن الاعوجاج، بل هي الحق المبين.

- وهكذا.. في الحالات الثماني الأخرى التي ورد فيها لفظ (عربيا) وصفا للقرآن (ولم نوردها هنا)، فهو عربي أي - فصيح مُبِينٌ عن مقصوده. والله تعالى أعلم.

من فقه اللغة:

- سؤال رابع: قد يُسأل: كيف تبيّن لك أن (عربيا) تعني.. فصيحاً، مُبِيناً؟
- الجواب.. موجود في معجم (لسان العرب). فمن معاني (عربي) - السبعة الآتية:-

١ - فصيح: (رجل مُعَرَّبٌ : فصيحٌ. وإن كان عَجَمِيَّ النَسَبِ). ألا ترى أن.. المُعَرَّبَ - هو الفصيح، وإن لم يكن عربي النسب. لأن المُعَرَّبَ هو الفصيح - عربياً كان أو غير عربي كان (رُويَ - كما يقول اللسان - عن أبي بكر - رضی الله عنه - أنه قال: قريش هُم أوسط العرب، في العرب، داراً، وأحسنهم جواراً، وأعربهم ألسنةً).. أي - هي أفصح العرب. وقال رسولنا العظيم - صلى الله عليه وسلم- «الثَّيْبُ تُعَرَّبُ عن نفسها» أي- (تُفَصِّحُ). هكذا ورد في اللسان. ثم يقول اللسان: (وإنما سُمِّيَ الإعراب.. إعراباً، لتوضيحه وتبيينه)، أقول: والإعرابُ هو - من النحو- الحركات على أواخر الكلمات، لأنها (= الحركات) فيها معنى مضاف لمعنى صيغة الكلمة، كالمفعولية، والحالية، والظرفية... إلخ.

٢ - تعليم الفصاحة:- (وفي حديث الحسن (ابن عليّ) أنه قال له (البتّي): ما تقول في رجل - رُعِفَ - في الصلاة؟ فقال الحسن: إن هذا - يُعَرَّبُ النَّاسَ - أي- يُعَلِّمُ الناس. أقول: سَخِرَ منه الحسنُ، لأنه يقال: (رُعِفَ)، على البناء للمعلوم، وليس (رُعِفَ) على البناء للمجهول. أقول: يُعَرَّبُ - هنا- معناها (يعلم) الفصاحة.

٣ - الماء الصافي: (العَرَبُ، هو الماء الصافي. ونهر عَرَبُ: عَمْرٌ، وبئر عَرَبية: كثيرة الماء).

٤- التَجْمُعُ: (وعَرُوبَةٌ، وعَرُوبَةٌ: كلتاها.. الجُمُعة)، لأن الناس يجتمعون للصلاة فيها.

٥- (والإعراب.. النكاح. وقيل: التعريض به)- ومنه: المرأة العروب: المتحبة إلى زوجها.

٦- الفُحْشُ: (الإعراب والتعريب: الفحش، وهو ما قُبِحَ من الكلام).

٧- والرجل العربي: والعربي هو المنسوب إلى العرب. أقول: وهي نسبة اضطرارية، لأن كلمة (العرب)، وهي اسم جنس - ليس لها مُفرد من جنسها، فجاء المفرد على صيغة النسبة. ولذا.. فهو ليس نسبةً على الحقيقة وإن جاء بصيغة النسبة، لأنه اسمُ مفرد. - كما قالوا: أنصاري، من الأنصار. وهي ليست نسبة على الحقيقة - كذلك.

- أقول: إن كلَّ المعاني السابقة وردت في معجم (لسان العرب) ويتضمَّنُها القرآنُ. المعنى الأول = الفصاحة والإبانة - وَضَحْنَاهُ، في مكانه. أما المعاني السَّتَّةُ اللاحقة، فالقرآن يتضمَّنُها على النحو الآتي:

- فالمعنى الثاني: (يُعَلِّمُ)، والقرآن هو كتابٌ يُعَلِّمُ الدين والأخلاق، ومبادئ التعامل والمعاملات، ويُعَلِّمُ عن نظام الكون؛ بإشارات يحللها العقل البشري، قرنا بعد قرن.

- والمعنى الثالث: وهو (الماء الصافي، والغزير). وهل القرآن الكريم غير ذلك؟ لأن معانيه صافية، لأنه حق وعدل، والحق والعدل.. صفاء معنوي. وهل القرآن إلا نبع، تُستقى منه كل العلوم، بعضها تُستقى كلها منه - كالعقيدة، والعبادات والمعاملات، وبعضها تُستقى منه إشارات دالَّة، فمن يتابعها، من المتخصصين في مجالها يُهدى إلى علم كثير.

- والمعنى الرابع - دلالتُه هو أن القرآن «مُعَرَّبٌ» لأنه يَحُضُّ على النكاح، لأهمية الجنس، ومن أجل الإحصان والعفاف.

- والمعنى الخامس (= التجمع)، والقرآن مُجْمَعُ الجماعات. أليس المسلمون، وهم الآن مليار ونَيْف، كُلُّهُمُ جماعة واحدة، مجتمعة على العقيدة والعبادات؛ وإن تفرقوا، فيما وراء ذلك، ولكن، إلى جماعات أيضاً.

- أما المعنى السادس: (الفحش) فدلالته في القرآن هو مُحاربة القرآن للفحش. أي - إن هذا المعنى وارد فيه على معنى (السلب). بمعنى أن الكلمة في اللغة، تأخذ أحيانا، وهي في سياق، معنىً مضاداً لمعناها الأصلي، مثل كلمة (ممرضة) فأصل الكلمة أن الذي يمرض الشخص إنما هو الذي يجلب له المرض. ولكن، استعملت في معنىً مضاداً، في العصر الحاضر، فالممرضة هي التي تساعد في شفاء المريض، أي - في - سَلْبٍ - المرض منه. وهذا السلب هو

أحد قوانين نمو اللغة. وإذن كلمة الفحش هنا أخذت معنى السلب، بمعنى أن القرآن يدعو إلى سلب الفحش، من حياة الناس، أى - يدعو إلى الفضيلة، عن طريق الزواج.

- أما المعنى السابع.. فهو بمعناه الأصلي.. هو المقصود، عندما يراد في القرآن، ومعناه هو: (الفصح). أما بالمعنى الثانى.. فلا يتضمنه القرآن، لأن هذا المعنى الثانى.. لا يدل على الفصاحة، وإنما يدل على جنس العرب. وهو معنى تطور مع الزمن.

- وسؤال خامس هو: من أين جاءت كلمة (عَرَبٍ) - وكيف صار معنى (العربى) أو أحد معانيه: الفصح؟

- الجواب.. هو أن من أنواع الاشتقاق - الاشتقاق بتقليب الحروف. مثلاً.. (جَدَبَ) اشتقت منها كلمة (جَبَدَ) لتدل على شدة أكبر في الجذب. وكلمة (عَرَبَ) مشتقة من كلمة (عَبَرَ) عن طريق تقليب الحروف. و (عَبَرَ) تعنى الذى يمشى من جانب النهر (أو الأرض) إلى جانبه الآخر. والعرب كانوا - فى معظمهم - بُدَاةً، يسكنون البادية، فيتنقلون فيها، فيعبرونها من جانب، فى تنقلهم، إلى جانب آخر..

- وبما أن البادية.. بادية، أى - ظاهرة ومكشوفة، فالذى يعبرها.. بادٍ وظاهرٌ، ومكشوفٌ. فإذا تكلم سُمِّيَ كلامه (عَبْرِيًّا)، أى - باديا وظاهرا ومكشوفًا، خاصةً أن قُطَانَ البادية لا يكتبون، فكلامهم مكشوف - من ناحية أخرى - لأنه مُصَوِّتٌ مسموع. (وَسُمِّيَ كلامهم باسمهم.. من باب (المجاز المرسل)، وعلاقته - التلازم - بين المتكلم وكلامه).

- ثم.. أفصح الرجل من الوادى: خرج منه، فظهر، وبَانَ وانكشف. وإذن.. الفصاحة هي - البيان، والظهور، والانكشاف. وإذا حُصِّصَت باللغة، كانت اللغة الفصيحة هي: المبيَّنة للمعاني، المظهِرة لها - الكاشفة لها.

- وإذن.. هناك علاقة مشتركة بين الكلام العبري، والكلام الفصح، فكلاهما يُبيِّن عن المعاني (والمقاصد) ويُظهِرها ويكشفها. وإذن.. الكلام - العبري - هو الكلام - الفصح - ولكنَّ العرب لم يرتاحوا - بالذوق - لكلمة (عَبَرَ) لطول الاستعمال (وطول الاستعمال يحوّل الكلمة - أحياناً - إلى كلمة مبتذلة - أما تراننا، لطول الاستعمال أصبحنا، إذا أردنا أن نَصِفَ وَجْهَ فتاة - جميلاً.. لا نقول: (وجْهها كالبدن) وإنما نقول: (مُحِيَّاهَا كالبدن)؟ ما ذاك إلا لطول استعمال كلمة الوجْهِ، وكثرة استعماله جعلت كلمة الوجه غير شاعرية - فاشتقوا، لهذا.. (من عَبَرَ) اشتقاقاً جديداً أقرب إلى الذوق - بسبب الجدّة - فقالوا: (عَرَبٌ، وعَرَبٌ، وعَرَبِيٌّ - وكلامٌ عَرَبِيٌّ) ثم.. ثَبَّتَ الاشتقاق، ومضى مع التاريخ.

- وواضح أن (عَرَبَ) هي من تقاليب (عَبَرَ - وكلامَ عَبْرِي) - ولأن الكلام العَبْرِي هو الكلام الفصيح، فالكلام العَرَبِي هو الكلام الفصيح - وإنَّ العَرَبِي - إطلاقاً هو: الفصيح - كما أن العَبْرِي - إطلاقاً - هو: الفصيح. فإذا نُسب الكلام إلى كلمة (عَرَبَ) كانت النسبة تعني.. أنه كلام فصيح. (وكلمة - العَبْرِي - بفتح العين - يمكن أن تُكسَّرَ عَيْنُهَا للتناسب مع الياء المشددة وطلباً للخفة).

- وإذن.. العرب هم عاربو البادية - الفصحاء - كما أن - العَبَرَ - هم عابروا البادية الفصحاء وعاربو البادية، و عابروها .. هم الذين يتجولون فيها، و يجتازونها من طرف إلى طرف آخر .. والله تعالى أعلم.

- وسؤال سادس في فقه اللغة:

- معروف أن الاشتقاقات المختلفة ذات - الأصل - اللغوي الواحد.. ترجع كلها إلى معنى واحد - غالباً -، هو المعنى الأصلي. وهذا.. كثير في العربية الفصحى، وقليل في اللغات الأخرى. (وهذا.. ليس من باب تَعَصُّب المرءٍ للغة، أو لما يخصه، وإنما هو أمرٌ يدل عليه علم اللغة، وفقه اللغة^(١)).

- فهل هذه المعاني السبعة لكلمة (عَرَبَ) أى - فَصَحَ. ترجع إلى هذا المعنى الأصلي؟
الجواب .. نعم .

- فالتعليم.. يؤدي إلى الفصاحة (في العربية، وفي سواها من اللغات) - أما ترى أن المتعلمين - بشكل عام - في كل الدنيا هم أكثر إبانة (=فصاحا) عن أفكارهم من غير المتعلمين؟

- والتجمُّع.. فيه احتكاك بين طاقات البشر المتجمعين. وهذا الاحتكاك يُفيد منه هذا الشخص كلمة، وهذا جملة، وذاك معنى، وذاك فكرة. ثم.. التجمع يُؤَلِّد الرغبة في المشاركة في الحديث، وأنَّ يعرض كل شخص ما عنده - خلافاً - للمتوحد - الذي لا يجد - غالباً - رغبة، في الكلام. وهذا.. كله يقود إلى ازدياد ثقافة المرء، وإلى صقل لغته، فيصبح أكثر إبانةً، و أكثر فصاحةً.

- والنكاح.. عند بنى الإنسان حافز قوي لتوليد عبارات المجاملة والغزل، لأن الإنسان لا تطيب منه العشرة، ولا تطيب له العشرة إلا بتغليب العلاقة الجنسية بألفاظ المجاملة والغزل، لأن الإنسان ينطوى على مشاعر جمالية، ولذلك.. لا يجد المتعة الكافية في

(١) الهيثمي - مَجْمَع الزوائد - ٢١٨ / ٨.

الشريك الآخر إلا إذا غُدِّيَ هذا الجانب الجمال- وكلّ ذلك يُحَثُّ على توليد الألفاظ، لإنشاء صياغات جديدة، تسرُّ الطرف الآخر. واذن.. يزداد الإنسان فصاحةً، بتدريب الذات على تغليف علاقته بعبارات جميلة.

- والعربُ.. هو الماء الصافى. والماء الصافى يعنى الفصاحة من ناحيتين: الأولى- أن الماء الصافى.. يُرى ما بداخله - بوضوح- وهذا.. إبانة، والفصاحة هى القدرة على إبانة ما فى النفس، عن طريق الألفاظ. والناحية الثانية- أن الماء الصافى هو ماء صِحِّي - غالباً- والماء الصِحِّي، من أسباب دوام الصحة للإنسان، ما دام حيًا، وصاحب الصحة الجيدة هو أقدرُ على متابعة التعلم، من الكتب، أو من تجارب الحياة، ومتابعة التعلم يُنمى مدارك الإنسان، وتنمية مدارك الإنسان معوَّانٌ على الفصاحة، لأن المدارك الواسعة تحتاج إلى مفردات كثيرة للتعبير عنها، مما يحفز مثل هذا الإنسان إلى أن يزيد ثروته اللغوية بحفظ مفردات جديدة أو بتوليد مفردات جديدة، أو بالوسيلتين - معاً . ومن ازدادت ثروته اللغوية فقد أصبح قادراً على التعبير عن مداركه الواسعة، فاستوى.. فصيحاً.

- والفُحش: هو كشف لما يحاول الناس أن يستروه من القول أو الفعل. فإذا تكلم المرء بالفحش، فقد أبان عن مستور، أى - أفصح عنه. وليست الفصاحة إلا القدرة على التعبير عن المستور من المعانى والأفكار.

- والعربى.. تلتقى مع الفصاحة، من حيث أن الأصل فى كلمة (العرب) الذين يعرَّبون البادية (أى- يعبرونها) وعبور البادية هو كشف لما فيها. والفصاحة هى الكشف والإبانة، فالعربى هو الكاشف المبين عن المعانى، والكاشف المبين عن المعانى هو الفصيح. أما قال (لسانُ العرب): والعربى هو الفصيح، وإن كان من أصل أعجمى؟ أى - وإن كان غير عربى؟! ثم .. العربى هو ظاهر بذاته، لأنه يتقلب فى صحراء مكشوفة.

- ثم.. من المعروف أن كثيراً من الكلمات تتطوَّر معانيها. ومنها ما يحتفظ بالمعنى الأوَّل، وبالمعانى الحادثة، وبعضها يموت معناها الأوَّل، أو يخفت، ويبقى معناها أو معانيها اللاحقة. وكلمة (عربى) لم يمت معناها الأصلي، وهو: الفصيح. وإنما خَفَّتْ، أمام معناها الذى اكتسبه، فيما بعد. فإذا أُطلِقت - الآن- ومنذُ عهد الجاهلية كلمة - عربى- (خارجَ القرآن) انصرف الذهن - فوراً- إلى المعنى المكتسب، وهو الجنس العربى، لا إلى المعنى الأصلي، وهو.. الفصاحة.

- ولن تَجِدَ مثلاً هذا التلاقي بين جميع المعانى التى تتولّد من اشتقاقات من جذر لغويٍّ واحدٍ - على تمامه - فى غير العربية الفصحى - لغة القرآن - التى ألهمها الله تعالى العرب - إلهاما، لتكون خالدة، فتحمل القرآن الخالد.
والله تعالى أعلم، وهو المعلم والأكرم.

خاتمة الكتاب

- لقد جعلنا هذا الكتاب مقصورا على «فقه اللغة» تحت عنوان (العربية الفصحى) - مُرونتها وعقلانيّتها وأسبابُ خلويها. فحللنا فيه ألفاظا وأقوالا فعلنا خلالها قوانين نموّ اللغة وتطوّرها، ليكون ذلك مثلا لمن يريد أن ينظر في الألفاظ. فَيَقْبَلُ ما يتماشى - من اشتقاقات جديدة، ومن معانٍ جديدة - مع قوانين اللغة، ويخُطِّي ما يَجِدُهُ لا يتماشى مع هذه القوانين.

وقد كانت بعض الرُودود تصويبا لآراءٍ في اللغة أُطلِقت، دون تَمَعْنٍ. ومن تصويب ذلك.. قولنا: إن اللغة التي يحتاجها توضيحُ أصول الدين.. قليلة، كالعقيدة والعبادة، مما يجعل اللغة المؤلفة من عَشْرَةِ آلاف كلمة أو أقل تفي بذلك. وأن اللغات تتفاوت في ثرائها بالألفاظ وقدرتها على توضيح المعانى. وأن اللغة العربية أعظم لغة لقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَبِي ۗ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]. فالإبانة وُصِفَ بها هذا اللسان العربيّ وَحْدَهُ. نَعَمْ، - أعظم لغة - لقوله تعالى السابق الذى هو جُمَاعٌ لأسبابٍ أخرى كثيرة تتصف بها اللغة العربية، وتتفوق فيها على غيرها.. لا مجالَ لذكرها هنا، وقد ذكرنا بعضها خلال هذا الكتاب.

- ولُبُّ دعوانا: هي أن رَبِّ زدني علما، واجعل ما نقولُهُ وما نفعله في ميزان حسناتنا يوم القيامة، واغفر لنا سيئاتنا، وتب علينا، إنك أنت التَّوَابُ الرَّحِيمُ. وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين.

انتهى الكتاب - والحمدُ والفضلُ بما جادَ به القلمُ - لله تعالى الذى عَلَّمَ بالقلم.

مصادر الكتاب - ومراجعته

- هذا الكتاب [العربية الفصحى : مرونتها، وعقلانيتها، وأسباب خلوها] - لم يتبع منهج التأليف التقليدي - الذي يُعدُّ - جذازات - من عشرات الكتب، وأحيانا - من مئاتها - ثم يصنف هذه الجذازات، في موضوعات فرعية، يصنع منها كتابا - لا جديد فيه.

أو الجديد فيه .. آراء جزئية وقعت هنا وهناك، لا تخرجه عن صورته التقليدية في التأليف.

- بل هذا الكتاب قام على - التجديد - والإتيان بما يفارق - كثيرا - ما قاله الآخرون: قدامى، ومعاصرين.

- كثيرا.

- ولهذا .. فمراجعة قليلة، لأنه لا يعتمد على النقل من الكتب. وهذا .. اقتضى التنويه.

المصادر:

- القرآن الكريم.

- الحديث النبوي الشريف - الصحيح.

المراجع

- البخارى - محمد ابن إسماعيل - صحح
- البورينى: عبد الرحمن أحمد- اللغة العربية.. أصل اللغات كلها - عمان/ دار الحسن - ١٩٩٨.
- الجرجاني: عبد القاهر ابن عبد الرحمن- دلائل الإعجاز - القاهرة/ مكتبة الخانجي- ١٩٥٢/١٣٧٥.
- الجمحي: محمد ابن سلام - طبقات فحول الشعراء - المقدمة.
- جواد على- المفصل فى تاريخ العرب، قبل الإسلام.
- بيروت/ دار العلم للملايين - بغداد/ دار النهضة - ١٩٦٨.
- حجازى: محمود فهمى- علم اللغة العربية - الكويت/ وكالة المطبوعات - ١٩٧٧.
- ابن خلدون: عبد الرحمن ابن محمد - المقدمة/ القاهرة - ١٩٦٢- تحقيق: على عبد الواحد.
- سعد زغلول عبد الحميد - فى تاريخ العرب، قبل الإسلام/ بيروت/ دار النهضة العربية - ١٩٧٦.
- الصالح: صبحى- دراسات فى فقه اللغة/ دمشق- مطبعة جامعة دمشق - ١٩٦٠.
- الطبرى: محمد ابن جرير - تاريخ الرسل والملوك/ القاهرة - دار المعارف - ١٩٦٦.
- عرابى: رجاء عبد الحميد - سفر التاريخ اليهودى.
- عمايرة: خليل أحمد- فى نحو اللغة وتراكيبها - منهج وتطبيق - جُدة/ عالم المعرفة- ١٩٨٤.
- عودة أبو عودة- التطور الدلالى بين لغة الشعر الجاهلى - ولغة القرآن الكريم.
- القيسى: عودة الله منيع- رؤى نحوية وصرفية تجديدية - ٤/ عمان/ دار البداية - ٢٠١١م.
- منابع - منابع الشعر ومكانه الشاعر/ عمان/ عمال المطابع التجارية- النداء الحق- ج ١- عمان/ دار البداية - ٢٠١٠.

○ العصمتان «مخطوط».

○ ابن هشام : عبد الملك ابن محمد- السيرة النبوية - (٤ ج)- الهيئى - على
ابن أبى بكر- مجمع الزوائد - القاهرة/ دار الرّيان للتراث- ١٤٠٧.

المجلات:

١ - الشلبى : إبراهيم مهدى- مجلة (العربى): أدركوا اللغة العربية - العدد (٦٤٥) سنة
٢٠١٢م.

٢ - القيسى : عودة الله منيع- هدى الإسلام - ٥ ، ٦ ، ٧ - لسنة - ٢٠٥.

الخطوط العريضة للسيرة الذاتية

أولاً: المؤهلات العلمية :

الاسم: د. عودة الله منيع سالم القيسى / ناقد ولغوى وكاتب موسوعي ومتخصص في إعجاز القرآن اللغوي.

مكان الولادة وتاريخها: الطيبة / الكرك ١٧/٩/١٩٣٨م.

المؤهلات:

(أ) دكتوراه في اللغة العربية / تخصص نقد (عن الإعجاز اللغوي في القرآن . ١٩٨٨م).

(ب) ماجستير نقد حديث/ جامعة القاهرة ١٩٨٠م.

(ت) دبلوم في سنتين في البحث من معهد البحوث والدراسات العربية/ القاهرة ١٩٧٦م.

(ث) بكالوريوس لغة عربية/ جامعة دمشق ١٩٦٤م.

- درست الى الصف السادس في بلدتي ثم درست الصف السابع في بلدة العراق (في محافظة الكرك) وهي تبعد حوالي عشر كيلو مترات عن بلدتنا وباتجاه الشمال الشرقي. ثم درست الثامن والتاسع في مدينة المزار، ثم درست العاشر والحادي عشر في مدينة الكرك وكانت دفعتي آخر (مترك) عام ١٩٥٩-١٩٦٠م.

- وقد حصلت على المرتبة الثانية في المترك في محافظة الكرك والطفيلة. وقد أوفدني وزارة التربية والتعليم (وزارة المعارف آن ذاك) في بعثة لدراسة اللغة العربية، في دمشق وتخرجت منها عام ١٩٦٤-١٩٦٥م.

- ولكن نظام التدريس في الجامعة - آن ذالك- لم يكن يقوم على وعي تربوي يتماشى وعدالة تقويم الطالب، لقد كان الأستاذ يجعل الامتحان - غالباً - يقوم على سؤال واحد مما يفقد الامتحان صفة الشمول والإحاطة بسائر المهارات.

ثانياً: الخبرات الوظيفية

(أ) معلم مرحلة ثانوية من ١٩٦٤-١٩٦٨م.

(ب) مدير مدرسة ثانوية من ١٩٦٨-١٩٩٦م.

- (ت) موجّه لغة عربية من ١٩٧٠-١٩٧١م.
- (ث) مساعد فنى فى مديرية تربية الطفيلة من ١٩٧٠-١٩٧٣م.
- (ج) عضو إشراف تربوى فى مركز الوزارة ١٩٧٥م.
- (ح) مدير معهد معلمين فى عمان من ١٩٧٨-١٩٧٩م.
- (خ) مساعد مدير شؤون الموظفين فى وزارة التربية والتعليم ١٩٧٩م.
- (د) موجّه مسؤول عن التعليم الخاص فى الإمارات (ماعدأ أبو ظبى) من ١٩٧٩-١٩٨٣م.
- (ذ) مساعد أكاديمى فى كليات المجتمع ١٩٨٣-١٩٨٥م.
- (ر) مدير كليات المجتمع بالوكالة من ١٩٨٥-١٩٨٧م.
- (ز) مدير توثيق ومطبوعات تربوية فى مركز الوزارة من ١٩٨٦-١٩٨٧م.
- (س) مدير التأهيل والتدريب والإشراف التربوى (توجيه تربوى) فى مركز الوزارة من ١٩٨٩-١٩٩٠م.
- (ش) عرض على منصب وزير أوقاف - سنة - ١٩٩٤م ولا كنى اعتذرت. نظرا لأن المهام المطلوبة - أن ذلك- لا توافق موقفى فى الحياة.
- (ص) عميد كلية مجتمع غرناطة/ اربد/ ١٩٩٠م.
- (ض) عضو هيئة تدريس فى كلية تأهيل المعلمين العالية (كلية جامعية) من ١٩٨٨-١٩٩٠م.
- (ط) عضو هيئة تدريس فى جامعة عمان الأهلية من ١٩٩٠-٢٠٠٠م وقد درّستُ الموضوعات التالية: الصرف، فقه اللغة، الأدب القديم، النقد القديم، النقد الحديث، التفسير ومدارسه. ورئيس قسم اللغة العربية- فيها.
- (ظ) الإشراف على رسالة المعلم الأردنية ١٩٨٥م.
- (ع) رئيس تحرير مجلة (الكاتب الأردنى) ٢٠٠٦م.
- (غ) مدير تحرير مجلة (الضاد) ٢٠٠٥-٢٠٠٧م.

★★ والآن متفرغ للتأليف

ثالثاً: عضوية اللجان والاتحادات:

- ١ - عضو اتحاد الكتاب والأدباء الأردنيين منذ ١٩٨٧م.

- ٢ - عضو تطوير مناهج اللغة العربية منذ- ١٩٩٠ حتى ١٩٩٨ م.
- ٣ - عضو فريق الإشراف على كتب اللغة العربية منذ ١٩٩٢ حتى ١٩٩٨ م.
- ٤ - عضو جمعية الدراسات والبحوث الإسلامية منذ ١٩٨٨ م.
- ٥ - عضو المعهد العالمي للفكر الإسلامي منذ ١٩٩٥ م.
- ٦ - عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ ١٩٩٢ م.
- ٧ - خبير مناهج اللغة العربية وكتبها للمدارس.
- ٨ - عضو جمعية (اللغة الفصيحة - حفاظاً وتنمية).

رابعاً: الأحاديث الإذاعية والتلفازية

- ١ - أحاديث في تلفاز دبي ١٩٨٣ م.
- ٢ - أحاديث دينية في إذاعة الأردن ١٩٨٤ م.
- ٣ - أحاديث في إعجاز القرآن في إذاعة الأردن ١٩٨٤ م.
- ٤ - أحاديث في إعجاز القرآن في التلفاز الأردني ٢٠٠٢ م.
- ٥ - مقابلات عن السيرة النبوية ٢٠٠٦ م.
- ٦ - مقابلات عن فقه اللغة العربية ٢٠٠٦ م.
- ٧ - مقابلات متعددة، في الإذاعة الأردنية، في برنامج فكر إسلامي.

خامساً: المؤلفات والخبرات العلمية:

ألفت الكتب التالية:

القسم الأول: كتب - ألفتها- بالاشتراك: وهي الآتية:

- ١ - كتاب اللغة العربية / الصف الرابع (سلطنة عمان) ١٩٧٤ م.
- ٢ - كتاب اللغة العربية / الصف الخامس (سلطنة عمان) ١٩٧٤ م.
- ٣ - كتاب اللغة العربية/ الصف الحادي عشر/ الأردن . ١٩٧٤ م.
- ٤ - مذكرة في النقد والبلاغ / الصف الثامن (سلطنة عمان) ١٩٧٥ م.
- ٥ - كتاب اللغة العربية / الصف الثامن(سلطنة عمان) ١٩٧٥ م.
- ٦ - التطبيق اللغوي (لطلبة الصف السابع في الإمارات) ١٩٨٣ م.
- ٧ - دليل المعلم (التطبيق اللغوي) للأول الإعدادي) ١٩٨٣ م.

- ٨ - التطبيق اللغوى / الصف السابع / الأردن، ١٩٨٤م.
- ٩ - تعريب وتوحيد المصطلحات العلمية والتقنية (الاتحاد العربى للتعليم التقنى) بالاشتراك ١٩٨٤م.
- ١٠ - دليل تدريب ومتابعة معلمى اللغة العربية (الرابع - السادس) ١٩٨٦م الأردن
- ١١ - مذكرة فى النقد والبلاغة (الصف الثانى عَشَرَ / ١٩٨٩م) الأردن.
- ١٢ - منهاج اللغة العربية وخطوطه العريضة / ١٩٩٠م الأردن.
- ١٣ - اللغة العربية / المستوى التأسيسى الأول (الأوقاف) ١٩٩٠م الأردن.
- ١٤ - اللغة العربية لطلبة المعهد الشرعى / ١٩٩٠م / الأردن.
- القسم الثانى: كتب ألفتها وحدى، وهى:

- ١ - يوم الكرة الأرضية (مجموعة قصصية) ١٩٩٤م.
- ٢ - سرُّ الإعجاز (فى تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوى واحد فى القرآن) ١٩٩٥م.
- ٣ - مقالات فى النقد الأدبى التطبيقى ١٩٩٨م.
- ٤ - دليل الطالب (شرح كتاب الثقافة الأدبية واللغوية) ٢٠٠٠م / الأردن
- ٥ - الإعجاز اللغوى فى قصص نوح فى القرآن ٢٠٠٠م.
- ٦ - منابع الشعر ومكانة الشاعر ٢٠٠٢م (نقد أدبى)
- ٧ - الإعجاز اللغوى لآيات الصيام فى القرآن ٢٠٠٣م.
- ٨ - رائية ابن أبى ربيعة فى حبيبته (نعم) تحليل وتعليل ونقد ٢٠٠٣م - (نقد أدبى)
- ٩ - نماذج الشخصيات المكررة فى روايات نجيب محفوظ ٢٠٠٣م - (نقد روايات).
- ١٠ - تكنيك الشخصيات الرئيسية والثانوية فى روايات محفوظ ٢٠٠٦م - (نقد روايات).
- ١١ - المثقف فى النقد الأدبى - تحليل وتعليل وتدليل (شعراء مكتب الأردن لرابطة الأدب الإسلامى ٢٠٠٧م - نقد أدبى).
- ١٢ - العربية الفصحى - مرونتها وعقلانيتها، وأسباب خلودها - ٢٠٠٧م - (فقه لغة)
- ١٣ - النداء الحق. ردود على كتاب وكتب (جزءان - فكر إسلامى).
- ١٤ - كرامات شفيفة ومواقف منيفة فى حياة رسولنا - صلى الله عليه وسلم - ٢٠٠٧م (من سيرة الرسول).
- ١٥ - وجهات نظر فى الفكر السياسى والإدارى ٢٠٠٤ - (فكر سياسى).

- ١٦ - وانهار السد (مجموعة قصصية - ٢٠٠٦م).
- ١٧ - من الإعجاز اللغوي في القرآن (الكلمات المتقاربة المعنى المتباعدة المبني) ٢٠١٠م.
- ١٨ - بعض ما خطأه اللغويون وهو صواب - وبعض ما اعتبروه صواباً وهو خطأ - ٢٠١٣م.
- ١٩ - تحاور اللغة والحياة (في فلسفة اللغة) - ٢٠١٣م.
- ٢٠ - رؤى - نحوية وصرفية - تجديدية - ٢٠١١م.
- ٢١ - شؤون تربية.
- ٢٢ - الزينة والحجاب - في الأحاديث والكتاب. - ٢٠١٤م.
- ٢٣ - كتبت أكثر من عشرين بحثاً في المجلات التالية (أفكار الأردنية، اللقاء الأردنية، هدى الإسلام الأردنية، المواقف الأردنية، المعرفة السورية، اللسان العربي المغربية، الدوحة القطرية، منار الإسلام الإماراتية، الآفاق الأردنية، رسالة المعلم الأردنية).
- ٢٤ - أهؤلاء علماء - أم هم نَقَلَةٌ معلومات؟ (فكر إسلامي) - ٢٠١٤م
- ٢٥ - في فقه العربية (معالجات وردود) - (فقه لغة) - ٢٠١٤م
- ٢٦ - رأس نقد الشعر - نقد (للفنّ) في الشعر- (نقد أدبي) - ٢٠١٤م
- ٢٧ - رؤية جديدة للأحاديث المضطربة (نقد لبعض ما نسب للرسول من حديث) - ٢٠١٤م.
- ٢٨ - نجيب محفوظ- نماذج من الحضارة الغربية في روايات (نقد روائي) - ٢٠١٤م.
- ٢٩ - خير تخضيب رسول الله بالدم - خير مكذوب - ٢٠١٤م.
- ٣٠ - رسولنا الكريم لا ينطق عن الهوى - نقد لرأى المهندس عدنان الرفاعي، عن الحديث الشريف - ٢٠١٤م.
- ٣١ - حديث (لا وصية لوارث إلا أن يشاء الورثة) - حديث مكذوب - ٢٠١٤م.
- ٣٢ - الحكومة الرشيدة - والحكومة الفاشلة - ٢٠١٤م.
- ٣٣ - كتب أكثر من خمسمائة مقالة في الصحف الأردنية.

المؤلفات المخطوطة:

- ١ - (العصمتان) عصمة الله تعالى الأعظم لرسوله - صلى الله عليه وسلم - الأكرم من أن يؤذيه أحد - أذى مادياً أو معنوياً - فيه إهانة وإذلال مكون من عَشْرَةِ أجزاء في السيرة النبوية).
- ٢ - ليس بإنذار من السماء - بل شعاعٌ هداية من السماء - (فكر إسلامي)

- ٣ - لمحات من الإعجاز اللغوى فى سورة البقرة.
٤ - المؤلف - المختلف (المعجن) قبسات من آى القرآن الكرىم.
٥ - التفرد فى الحكم.. سمة العالم الثالث - (فكر سىاسى).
٦ - يقرأون.. ويصدقون- (فى مناقشة الأحاديث الضعيفة)

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء.....	٣
كلمة نزهة.....	٥
كلمة من الأستاذ جورج حداد/ رسالة د. القيسي/ النسبة إلى حياة	
المقدمة.....	٩
تمهيد... فرضية الشعوب السامية واللغات السامية... فرضية خرافية لا أصل لها.....	١٩
قد يستغرب المتلقى هذا العنوان/ كيف تكشفت هذه الحقيقة ومتى/ التوراة ليست مصدرا موثوقا لأنه غير موثق/ المراجع التي أكدت عدم وجود أصل «سامي» سلبيا هي القرآن الكريم، في القرآن لم يرد ما يشير إلا إلى ولد واحد لنوح (عليه السلام) أغرقه الموج./ الحديث لم يرد فيه ولا حديث «صحيح» عن أن لنوح أبناء/ التاريخ القديم اليمنى والعراقى واليونانى لم يشر إلى أمة سامية/ النقوش لكل هذه البقاع لم يذكر شىء اسمه (أمة سامية)/ كاتب يعتبر السامية بدعة لخدمة اليهود ولكن من منظوره السياسى الدعائى/ اللغات القديمة فى الجزيرة والعراق وبلاد الشام كلها لغات عربية وليس من لغات سامية/ التثابه بين لغات المنطقة ليس عليه من دليل واحد على أنها ترجع إلى أصل واحد. وإنما هو تشابه.. يرجع إلى تشابه جغرافى/ مُصطلح الشعوب السامية واللغات السامية فرضية وُضعت عام ١٧٨١م/ من نحن إذن؟ نحن عرب فى العرب البائدة (فجاءت منها العرب العاربة) النتيجة.. السامية خرافة لا أصل لها.	

القسم الأول - كيف يتعلم الإنسان اللغة؟

الموضوع الأول السكاكينى وتصوره الساذج لراحل تطور اللغة العربية:.....	٣٥
العربية مرت بثلاث مراحل/ النصوص لا تُسعف على هذا التصور/ المراحل فى حياة الإنسان مُتداخلة/ نظريات يُكذّب بعضها بعضا/ لغة آدم هى العربية/ لا يتقدم المفعول على الفعل إلا نادرا المرحلة الأولى.. وَهْمُ الترتيب مع الأسماء المقصورة لا يزال مرعيا/	

الترتيب الملزم في الأسماء المقصورة يدل على أهمية الحركات/ اللغة العربية متفوقة على غيرها/ التقديم والتأخير حيوى فى اللغة من أجل المعنى/ لا تستطيع الإنجليزية أن تعبر كما تعبر العربية.

الموضوع الثانى

نظرية اللغة بين عبد القاهر الجرجاني، وتشومسكى قراءة لكتاب فى نحو اللغة وتراكيبها للدكتور خليل عمايرة ٤١

الفطرية والشمولية.. ترتب عليها فرضية تقوم على جانبين هما: الأداء - والكفاية وأفضل بَدَل الكفاية (القدرة - أو الملكة/ القواعد والقوانين.. كامنان فى الذهن/ البنية العميقة، والبنية السطحية.. مُرتبطتان بنظرية تشو/ تفسير معنى فطرية اللغة/ تشو.. لم يأت بشيء جديد/ أمر (قوانين اللغة) سبق ابن خلدون بها تشو/ القرآن الكريم سبق بذلك.. ابن خلدون، وتشو/ الرسول - صلى الله عليه وسلم - بيّن للناس معنى الآية القرآنية/ خلايا الجسم تُوصل ما تُحصَل من اللغة إلى الدماغ. وكل نوع من الخلايا يقوم بثلاثة أعمال/ اللغة.. تُكتسب بوجود خلايا فى الدماغ لاستقبال اللغة، والاحتفاظ بها/ الفطرية والشمولية.. لا تختلفان عن الكفاية والأداء/ الألفاظ.. لا يقع فيها ترتيب إلا بسبب المعانى/ المرء.. لا يستقبل ألفاظا دون معانٍ/ المعانى والألفاظ.. لا تستقرّ فى الدماغ، لولا أن لها أماكن خاصة فى الدماغ/ الجرجانيّ سابق لتشو فى هذه النظرية/ هناك فرق بين حظّ العقل، وحظّ النفس، فى الأدب، تبعاً لنوع الفنّ الأدبى، شعراً كان أم قصة أم رواية/ نمثّل على لغة الشعر ببيتين للأخطل/ الفرق بين البنية العميقة، والبنية الظاهرة/ الأداء، يَعُدّه تشو الوجه الظاهر المنطوق. وقد تحدّث عنه الجرجانيّ على أنه مما تضبطه معانى النحو/ إنّ صحة النظم وفساده الذى رأى الجرجانيّ أن معانى النحو تضبطه هو ما عبّر عنه تشو ب (الأداء/ مثال على صحة التعبير، أى اتفاق التعبير مع صحة التركيب (معانى النحو)، بأبيات للشاعر البُحترى وتحليلها/ تشو يرى أن التغيير فى ترتيب ألفاظ الجملة لا يضير المعنى، وهذا غير دقيق حسب عبقرية العربية/ مثال من آية القصاص/ كل ما سبق يلخص فى نقاط ثمان، وردت فى الكتاب.

الموضوع الثالث

(فى نحو اللغة وتراكيبها) كتبه د. خليل أحمد عمايرة قراءة لكتاب (فى نحو اللغة وتراكيبها) ومناقشة آراء الكاتب - عمايرة..... ٥٣

هل الترتيب بين النعت والمنعوت.. يؤدى إلى بعض الغموض/ تنفيذ ذلك بثلاثة أدلة/
هل صحيح أن اللهجات السبع التى جمعت منها العربية بينها فروق كبيرة، تستدعى الشاعر، إذا نظم، أن ينظم باللغة الأدبية المشتركة؟ كيف تكونت هذه اللغة الأدبية المشتركة؟/ اللغة العربية جمعت من سبع قبائل هى التى نزل وفيه ألفاظ تماثل ألفاظ القرآن الكريم. وهذا عين الصواب، لأنها جاءت لغة مؤتلفة/ اللغة.. لم تكتمل فى مرحلتين، بل فى مرحلة واحدة/ الخطأ النحوى فى الشعر.. كان من باب تغليب الموسيقى، أو التظرف/ ليس صحيحا أن الجرجاني أعاد النظر فى النحو، بل جاء بمصطلحات قليلة من نفس مصطلحات النحو توافق منحاه البلاغى النقدى، ولم يُغيّر بها شيئا من مصطلحات النحو/ ما قاله الكاتب.. نقيض منهج الجرجاني/ الجرجاني استخدم مصطلحات النحو، للتعليل البلاغى، ليس أكثر/ لا تكون البلاغة - دائما - فى الترتيب المعقد للجمل، بل تكون كثيرا فى الترتيب البسيط/ مثال من القرآن على جمال التقديم والتأخير، عندما يقع موقعه/ اللغات التى تعتمد على النبر.. لغات مُتحوّلة لا تستقرّ على حال، لأن النبر (اللهجة، أو منحى الصوت) متغيّر/ الإنجليزى.. يلجأ إلى التنغيم، لأن الإنجليزىة نمطية جامدة التركيب/ التنغيم فى الإنجليزىة أو الفرنسىة) جعل شرحا بين المنطوق وبين المكتوب/ تنوع التعبير.. أغنى وأدقّ من التنوع عن طريق التنغيم/ الجملة القرآنية (وأسروا النجوى الذين ظلموا) تختلف عن جملة (أكلوني البراغيث)/ جملة (أكلوني البراغيث) - صحيحة نحويا - لأنها تعبير بلاغى وليس بتعبير عادى/ قول الأعرابى، لا يختلف عن قول ابنه طريف، فى رثاء أخيه/ ثلاثة إعرابات محتملة لجملة (أكلوني البراغيث)/ ثم.. يذكر الكاتب سبع استعمالات لغوية، لا تراها صحيحة، ونبين الصواب فيها

القسم الثانى اللغة العربية الفصحى لغة إلهامية

الموضوع الأول اللغة العربية إلهام أم مواضعة واصطلاح؟..... ٦٨

لباحث يجزم أنها إلهام/ الآية تدل على أن الله تعالى أنساهم لغتهم السابقة، وألهمهم

الفُصحى/ الإنسان قد يفقد ذاكرته. فينسى كل ما كان يعرف، أثناء الصرع/ قضت مشيئة الله تعالى أن يكون العرب محاربين أشداء لكى يكونوا أهلاً لحمل الإسلام/ الصحابة أفضل جيل، ليكونوا أفضل جيل لتطبيق الإسلام/ كبار الشعراء فى الجاهلية من البادية وليسوا من الحواضر. آنذاك/ القرآن ليس شعراً، ولا سحراً عند الوليد ابن المغيرة ومع ذلك.. دعا المغيرة جماعته أن يُشيعوا أنه سحر/ البيئات البدوية فقيرة اللُغة، ولكنّ بادية العرب كانت غنية باللُغة. من أجل أن يكون القرآن مفهوما/ مع أن القرآن يعلو الشعر بثلاث درجات.. غير أن وجود شعر غنى ضرورى لفهم القرآن/ لو كان الفنّ الروائى ضروريا لفهم القرآن لجعل الله تعالى عرب الجزيرة قادرين على تأليف الرواية.

الموضوع الثانى

أقوال اللغويين العرب القدامى فى العربية وأنها إلهامية وفرية اللغويين الغربيين فى أنها سامية..... ٧٦

الدكتور صبحى يذكر رأيين للقدامى بأن اللُغة مُواضعة. ويرجّح الرأيين وترجيحه لا وزن له، لأنه لا دليل له عليه/ ردُّ الباحث على رأى الدكتور صبحى/ ليس صحيحاً أن «اللُغات» العربية - المتزامنة - والمتتابعة، فى الجزيرة، وبلاد الشام، والعراق.. أصلها «أم» سامية/ التوراة ليست مصدرًا موثوقًا وهى المصدر الوحيد الذى يذكر أن لنوح عليه السلام ثلاثة أبناء: سام - وحام - ويافتح/ المصادر العربية التى ذكرت ذلك نقلت عن التوراة/ ١٦ - الزعم بأن العربية والآرامية.. لغتان ساميتان - لا دليل عليه/ العلماء الغربيون أخرجوا الدين من تفسير ظواهر لحياة ومنها اللُغة الألاتينية - لغة مُدونة.. واللُغات المنبثقة منها معروفة الصلة بها/ تشابهُ أصوات الحلق، وأصوات الإطباق فى المنطقة الجغرافية الواحدة.. أمر طبيعى/ تفوّق العربية الفُصحى على أخواتها - العربيات - يدلّ على فرادتها/ الله تعالى كانت قدرته كفيلاً بجعل العربية الفُصحى تُخالف أخواتها. ولكن الإسلام لا يقوم على «الطُفرة»/ من خصائص الفُصحى، أنها إلهامية أنها مفهومة فى جميع العصور، وستبقى/ لغات البشر الأخرى مُتنقلة، لأن فكر البشر متنقل، ويمكن نقله من لغة إلى أخرى/ حقائق الدين ثابتة، فهى تحتاج إلى لغة ثابتة/ ثبات اللُغة يعنى ثبات قوانينها، ولكن تطورها، يتم حسب قوانينها/ الدكتور حجازى يبسط رأى المُستشرقين، ولا رأى له، شأن معظم علماء العرب، فى اللُغة والنحو. وفى كلّ مجال الذين يقلدون الغرب/ لماذا لم

تكن الأكادية، وهي الأقدم، هي الأثبت أصواتاً لأنها مكتوبة/ من أكبر الأدلة تلك التي أوردناها في (التمهيد) أن السامية.. خُرافة، لا دليل عليها.

الموضوع الثالث

ليس هناك لغة سامية «أم» للغات المنطقة، اللغة العربية الهامية قامت قبل الإسلام
بقرنين فقط..... ٨٥

كون النبطية.. فيها بعض ألفاظ من الفُصحى لا يعنى أن الفُصحى هي الأقدم، بل العكس هو الصحيح./ كتاب.. يدعى أن الإنجليزية مأخوذة من العربية. وهذا ادعاء باطل/ التشابه بين لغتين في منطقة جغرافية واحدة.. شيء طبيعي، ولا يعنى اشتقاق إحداها من الأخرى/ حجازى يتابع - بغفلة - ما يقال من أن الفُصحى أقدم بكثير من الشعر الجاهلى/ أين الشعر السابِق على الشعر الجاهلى/ من العبث أن يدعى أن أقدم النقوش الثمودية يؤرّخ بالقرن الخامس، قبل الميلاد، وأحدثها بالقرن الرابع الميلادى/ أين الجنّات والعيون التي يذكرها القرآن لثمود/ الناقد ابن سلام الجمحى يُنكر على ابن اسحاق ذكر شعر لعاد، وثمود/ العربُ في الشمال.. نسوا لغتهم، ولم ينسوا أسماء قبائلهم، بإرادة الله/ العرب.. كانوا يفتنون إلى مكة المكرمة، ويتفاهمون بالفُصحى أى - بلغة واحدة/ النتيجة.. كل ما سبق يدحض وجود لغة سامية «أم» للغات الجزيرة والهلال الخصيب/ الفصحى.. إلهام وتوقيف، ولم تنشأ بالتواضع/ لو تُرجم القرآن إلى عربية متحوّلة (لو كانت العربية تتحول) لكان - بالترجمة - كلاماً بشرياً، لا قرآناً/ عدم الاختلاف فى بعض أصوات لغات المنطقة العربية لا يعنى أنها من أم واحدة/ الاختلاف فى أداة التعريف بين هذه اللغات.. دليل على أنها ليست من أم واحدة/ الأصل الثلاثى للكلمات.. موجود فى كل لغات الدنيا/ أقدم النقوش الثمودية.. ليس يؤرّخ بالقرن الخامس قبل الميلاد. بل هو قبل الميلاد. بخمسة عشر قرناً/ كون اللغات الصقوية والثمودية واللحيانية.. فيها أسماء باللغة العربية.. لا يعنى أن الفصحى من أم سامية. بل ذلك يرجع إلى أن الأسماء لا تتغير صورها ولو بين لغتين متباعدتين - ومن بيئتين مختلفتين/ اللهجات السبع التي جمعت منها العربية أصلها واحد.. نشأت بعض الفروق فى الصوت بينها، لاختلاف البيئات/ حجازى.. يبرر- اختلاف أدوات التعريف فى لغات المنطقة/ العرب يقدسون ما يأتيهم من الغرب/ اختلاف الضمائر كاختلاف أداة التعريف/ من الأدلة على أن هذه اللغات ليست من - أم - واحدة.

القسم الثالث

التعرف على عبقرية اللغة العربية الفصحى من خلال الاشتقاق وتوليد المعانى

الموضوع الأول «مثال الفعل فَرَجَ» ٩٧.

العربية لغة العقلاء الأديب يأتي باشتقاقات لم ترد فى المعاجم/ الفَرَجُ/ فُرُوج الأرض/
الْفُرْجَة/ التفاريج/ الفَرْجَة/. غُرْفًا/ الغُرْفَات/. المؤمنون المتطهرون قلة/ الفَرْجَة/ الفَرَج/
لكل الكلمات السابقة معنى مركزي/ أذن له/ المأذون/ قوس قزح/ وفارج وفريج/ أبناء
يعقوب.. تخيلوا القرية عاقلة/ فَرْجَة/ فارجا/ رجل فريج وامرأة فريج/ المَفْرِج/ المَفْرِج/
المنفَرَجَة/ المنفَرَج.

الموضوع الثانى كلمة (سَرَّ أو - سَرَر): ١٠٧.

سرر تعنى الاختفاء وتعنى الظهور/ تساروا/ استسرَّ الهلال/ السُرُّ/ السُرِّيَّة/ السَّرِيَّة/ السُرُّ/
السريبر/ تسرَّر الثوب/ التضاد نوع من العلاقة/ الاشتقاق ركن أساسى فى تطوير اللغة.

الموضوع الثالث تحليل لغوى لكلمات ثلاث: ١١٢.

لواقح/ العيشة المرصية فيها معنى الفاعلية/ ناقة لاقح/ الرياح مُلقحات شَمَّت/ الشوامت/
السلب/ التفريض/ تشمَّت بالعدو/ الشعراء كانوا يجعلون الحيوان ينجو - غالبا - من
الصيد/ طائح/ المطوحات/ لم يستعمل العرب إلا الطوائح/ طائحة/ المعاجم لم تحو كل
المشتقات.

الموضوع الرابع: مادة الفعل (عَنَدَ) تحليلها لغويا ١١٨.

المشتقات من مادة لغوية واحدة ترجع إلى أصل لغوى واحد/ اللفظة تتطور معانيها/
رجل عنيد: عاند/ صيغة المبالغة: قتال/ العنود والعنيد/ الزكاة / والحاجب/ عنود ليست
بمعنى عنيد/ تعاند الخصمان/ العاند/ عَنَدتِ الطعنة/ عاند فلان فلاننا/ فَتَفَّتْ/ زُرُقُم/
حَرْفَنَ/ سَرَجَنَ/ لا يحول كل فعل ثلاثى إلى فعل رباعي/ نَحَطًا/ خَالَفَ/ لم تنم اللغة نموا
كافيا/ تطور اللغة سرَّ عجيب.

الموضوع الخامس المقلة وتطورها اللغوى ١٢٩.

لا يجوز الاشتقاق إلا من المصدر - عند البصريين/ الكوفيون يرون أن الاشتقاق من
الفعل/ اللغة لم تؤيد كلا الرأيين/ الفعل مَقَلَ / تَمَقَّلَ/ اللغة تشقت من كل مادة.

الموضوع السادس تحقيق لفظ كلمة: (أَيِّئُهَا) ١٣١
الأوراي/ أَيِّئُهَا/ يَمَشِي/ يُمَشِي/ تَشَقُّقُ/ حذف التاء في كلام البشر جائز، وفي كلام
الله واجب/ الفرق بين - تَشَقُّقُ وتَشَقُّقُ.

القسم الرابع:

الموضوع الأول: اللغة العربية الفصحى والتعريب والنظر المعاصر فيها ١٣٦
تمهيد (نظرات في اللغة)

لم ندرس كتاب سيبويه، في المراحل الجامعية كلها/ تجاوزَ الكُتَّابُ بعض قضايا
سيبويه/ كيف ننسب إلى (اثني عَشْرِيَّة)/ هذا شاة/ وهذه شاة/ ثلاثة أنفس/ يعامل المذكر
معاملة المؤنث إذا تضمَّن معناه/ حل إشكال لغوي/ التوسعة في اللغة/ ثلاثة موضوعات وهل
يصح ثلاث موضوعات؟/ مادة (عَيْن) مادة (بعض)/ يمكن (بعض والبعض).

الموضوع الثاني اللغة العربية والتعريب (في العصر الحاضر) مناقشة أفكار في
الكتاب ١٤٢

اللغة أم التفكير/ اجتازت اللغة امتحانا صعبا في العصر العباسي/ تَوَسَّعُ الكوفيين في
القياس/ النسبة إلى - شُؤءة-/ فعولة - ينسب إليها على - فعول-/ ربعة رَبَعِي. ولكن
طبيعة طبيعي/ وَقَفَ القياس على الأغلب خطأ/ المحسوس يسبق المعنوي/ مراحل التطور/
اللّهجات تنشأ عن لغة أم/ ليس صحيحا أن ليست هناك لغة أفضل من لغة/ لغات الأنبياء
ليست فقيرة/ الدين.. تعبر عن مفرداته لغة متوسطة الثروة اللغوية/ حروف الهجاء ليست
متساوية في اللغات/ التفاضل يرجع إلى التركيب/ الفرق بين جَرَسِ الكلمات/ أصوات
الحروف قليلة القيمة وهي مفرقة/ اللغة اليونانية ذات إمكانات كبيرة/ فندريس يرى هوة
بين الحرف والصوت في الفرنسية والإنجليزية/ العربية متفوقة/ في: الإملاء، الاشتقاق،
الميزان الصرفي، أوزان العربية أكثر انضباطا من أوزان الإنجليزية/ الاشتقاق في العربية
أجود منه في الإنجليزية/ اللغات تتفاوت.

الموضوع الثالث العربية والتعريب في العصر الحديث: ١٥٧

الأساليب المشرقة تتفاوت / نظرا لما نعول عليه/ اللغة ليست أداة- للتعبير- فحسب/
اللغة مطواع/ اللغات تتفاضل/ العربية لغة الاشتقاق/ الإنجليزية غير قادرة على مجارات

العربية.. أمثلة: الفعل (كتب) في العربية والإنجليزية/ العربية ذات مرونة في التعبير عالية/ مثال مكون من جملة - مستخدمة الوسائل نفسها/ بذرائع شتى/ عملية دؤوب/ طالما - في موقعها غير صحيحة/ سوف لا - يستد مسدًا (لن)/ بصورة رئيسية (وليس رئيسية) / الرئيسى والرئيسية للعاقل/ ولبعض الأحياء الأخرى/ أخطاء عَشْرَةٌ يُقصد منها أن يُفيد منها الشباب.

الموضوع الرابع الفصحى والحضارة وجريدة الرأى:.....١٦٦

الفصحى والعاميات/ ليست اللغة العربية صعبة/ اللغة الإنجليزية يُلحَنُ فيها/ التركيب في العربية أبسط من التركيب فى الانجليزية/ الإعراب مِيزة للعربية/ ما مصير القرآن اذا استخدم الناس العاميات/ القرآن يجب أن يظل بلغة حيّة/ القرآن كتاب حياة/ معانيه تترجم الى اللغات الأخرى/ العاميات، اذا أريد لها الثبات، أصبحت صعبة/ اللغات المنبثقة عن اليونانية أصبحت صعبة وذات نحوٍ العربية بخير/ العامة لا تفرق بين لغة العلم ولغة الأدب.

الموضوع الخامس الخطأ والصواب، والاجتهاد فى اللغة:.....١٧٢

لم أقل، ولا مرة أننى الحَكَمُ الفُصْلُ فى الاجتهاد فى اللغة/ والباحث (وأقصد نفسى) لا يبتسر القول فى اللغة، بل منهجه/ الاستشهاد بآراء الكوفيين، أحياناً، لا يعنى إلغاء النحو البصرى، بيَدَ أنى أرى أن «رؤية» الكوفيين - أسلم من رؤية البصريين/ الصفة على وزن (فعلان) يأتى مؤنثها أحياناً على وزن (فَعْلَانة) وهذه عندى.. قاعدة يقاس عليها/ لا يجوز لأحد أن ينكر على أحد الأخذ بمنهج الكوفيين، أو منهج البصريين، وإنما يجوز له أن يناقش أفكاره وأدلته/ هَدْمُ قاعدة إملائية.. لبناء ما هو أقرب منها إلى طبيعة أصوات اللغة، وأقرب إلى التيسير.. مطلب بل واجب / رسولنا صلى الله عليه وسلم كان يأخذ بالأسير، إذا كان حقًا/ الإملاء.. ليس مقدّسا. وأصحُّه ما وافق أصوات حروف الكلمة، مع اعتبار المعنى/ الآراء الفردية.. يجب أن يفسح لها المجال للظهور/ والمجامع هى التى تُقَرُّ أو تُطْرَحُ/ ليس هناك إجماع فى اللغة، أو فى الفقه. (لسان العرب) ملئ بالخالقات، وكذلك كتب الفقه/ ما يسعى إليه الباحث، ويعتبره من الدين. كما اعتبره الثعالبي، فى مطلع كتابه (فقه اللغة) - هو الحفاظ على الفصحى، وتنميتها، لأنها لغة خالدة، لكتاب خالد/ مقالاتى اللغوية فى جريدة (الدستور) أطراها عالم لغوى جليل، هو الدكتور ناصر الدين الأسد.

الموضوع السادس اللغة العربية والمعاصرة - (العربية.. أدق اللغات، بياناً)..... ١٨٠

أربع ملاحظات عن ما دار في حلقة تلافزية، تفرّعت الى ثمانى نقاط هي:

(أ) كل اللغات فيها القدرة على التعبير عن مشاعر الإنسان، وأحاسيسه، ولكن العربية أعلاها كعباً/ (ب) فالعربية.. لغة الاشتقاق، وليس اللغات أخرى يشتق منها بنفس النسبة/ (ت) مُرونة العربية، فى التقديم والتأخير، حسب ترتيب المعانى فى النفس، لا تدانيتها فيها - لغة أخرى/ (ث) ليس من لغة فى الدنيا تستطيع أن تُترجم نصاً «شعرياً» على مستوى لغته الأصلية، فكيف بترجمة القرآن. إن هذا ليس نقصاً فى اللغات - وإن كانت قاصرة كلها عن العربية، وإنما لاستحالة تقمّص أحاسيس الشعر الأصلي، أو الإحساس بنفس ما أحسّ به/ (ج) ولذا.. المواد العلمية، والفكرية.. يمكن ترجمتها، خلافاً للأدب/ (ح) كل حضارة.. لها فكرها/ (خ) الملامح المشتركة بين الحضارات هى القاسم المشترك فى الطبيعة الإنسانية/ (د) هناك ملامح مُشتركة بين الاقتصاد الإسلامى الزكويّ، والاقتصاد الشيوعى الاشتراكى. مع وجود الفرق الهائل بين العقيدة الإسلامية والشيوعية المُحددة.

الموضوع السابع اللغة العربية والعشوائيات العربية..... ١٨٦

تمهيد قرأت فى مجلة العربى موضوعاً عن اللغة الفصحى/ اقتراحات للحفاظ على الفصحى/ العشوائيات العربية/ حاكم يبنى عاصمة عشوائياً تضم كل ما تضمه العاصمة التى لها مخطط شمولى لكن العاصمة العشوائية تقصر عن تأدية أهدافها.. مقترحات الدكتور إبراهيم كهذه المدينة العشوائية لكى تنجح الاقتراحات اللغوية لابد من أن تنضوى تحت مخطط شامل والمخطط الشامل يعنى أن تتكامل الدول العربية العشوائيات بكيان واحد/ عند إذن لا يصبح العربى يفتخر باللغات الأجنبية/ لا خوف على العربية الفصحى لو كانت العربية فيها جرائم الانقراض لانقرضت فى عصور الانحطاط، أو زمن الأتراك الاستعمار الجديد حاول أن يغلب العاميات على الفصحى .. فلم يقلح/ العربية عصية على الزوال/ القرآن .. حافظ للعربية الفصحى/ العربية إلهامية، جذورها غير قابلة للزوال/ عاشت سبعة عشر قرناً حية، ولم تعش مثلها لغة أخرى/ تجاوزت الفصحى المحن، وأصبحت إحدى اللغات العالمية.

الخلاصة

الموضوع الثامن الألفاظ الاصطلاحية الشرعية في القرآن الكريم وهل حدث لها تطور دلالي؟..... ١٩٢

اعتمد الكاتب على ما في المعاجم والشعر من ألفاظ لها وجه شرعي/ تحليل الكاتب للصلاة/ لم يكن تحليله كافيا/ قفز إلى معناها قفزا/ الصلاة من الصلا/ والصلا يتبادل المعنى مع (وصل)/ الصلاة معناها: الصلة بالدعاء.

الموضوع التاسع أحقا أن القرآن الكريم.. أنزل باللغة العربية الفصحى؟..... ١٩٨

لم أجدني مُرتاحا إلى القول بأن القرآن.. أنزل بالعربية/ القرآن لم تتطور لغته من الشعر الجاهلي/ كلام الله ليس ألفاظا متفرقة/ القرآن، ألفاظه تماثلها ألفاظ في العربية/ نحن نتجوّز عندما نقول (ألفاظ القرآن)/ الخليفة عثمان ليس صاحب نظرة تحليلية للقرآن/ القرآن «فصيح مئة بالمئة» أما اللغة ففصيحة لفصيحة بنسبة (٩٥٪)/ الله قديم، وكلامه صفة من صفاته، وصفاته قديمة، فكلامه قديم/ عبارة (قرآنا عربيا) أي - قرآنا فصيحاً (وليس منسوبا إلى الشعب العربي) / ما دليل أن كلمة (عربي) تعني فصيحاً؟ / عربي... لها عِدَّة معانٍ هي سبعة معانٍ/ هذه المعاني السبعة تُرَدُّ إلى معنى الفصاحة/ من أين جاءت كلمة (عَرَب)؟/ جاءت من (عَبْر) بعد - تقليب حروفها- كل معاني (عَرَب - أو - عَبْر) تعود إلى المعنى الأصلي، وهو (الفصاحة).

الخاتمة:..... ٢١١

وهي إشارة لماعة، ليس أكثر، لما احتواه الكتاب.

المراجع..... ٢١٣

الفهرس..... ٢١٥

منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
الناظرة	الإدارة والمكتبات	٩ شارع كامل صدقي بالفجالة	٢٥٩٠٥٩٤٨	٢٥٩٠١٧٦٦
	مكتبة ثروت	٢٧ شارع عبد الخالق ثروت	٢٣٩٣٦١٢٣	٢٣٩٣٦١٢٣
	مكتبة السيدة زينب	ميدان السيدة زينب ناصية شارع قدرى	٢٣٩١٣٨١٣	
	مكتبة شبرا	١٠٥ شارع شبرا أمام مدرسة التوفيقية	٢٢٠٢٣٨٦٦	
	مكتبة ماسبيرو	خلف دار المعارف ومجلة أكتوبر	٢٥٧٧٠٧٧	
الإسكندرية	مكتبة سعد زغلول	٤٢ شارع سعد زغلول	٠٣/٤٨٠٧٦٤٤ ٠٣/٤٨٠١٣٤٥	٠٣/٤٨٠٧٧٣٨
	مكتبة التحرير	٢ ميدان التحرير بالنشبية	٠٣/ ٤٨٧٩٩٥٣	
	مكتبة محرم بك	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
	جهاز المعارض بالإسكندرية	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
طنطا	المكتبة	خلف مسرح البلدية شارع القنطرة	٠٤٠/٣٣٣٢٣٥١	
المنصورة	المكتبة	شارع الجمهورية بجوار إدارة جامعة المنصورة	٠٥٠/ ٢٣٩٦٢٨٧	
الإسماعيلية	المكتبة	بجوار نادى الشجرة - شارع شبين الكوم	٠٦٤/ ٣٣٤٦١٩٢	
البرقازية	مكتبة المنتزه	ميدان المنتزه - بالزقازيق	٠٥٥/ ٢٣٠٥٠٢٢	
	مكتبة عرابى	ميدان أحمد عرابى سابقا	٠٥٥/ ٢٣٦٥٠٢٢	

منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
العريش	المكتبة	شارع الجيش أمام قسم العريش	٠٦٨/ ٣٣٦١٨٩٠	
السويس	المكتبة	سوق فيصل السياحي- حى فيصل	٠٩٢/ ٣٦٧٢٩٦٦	
شبراخيت	أسيوط	شارع جلال الدين السيوطى	٠٨٨/ ٢٣٣٤٥٠٤	
	منطقة أسيوط الجديدة	عمارة الأوقاف رقم ٢ ش سعد زغلول	٠٨٨/ ٢٣٣٠٠٠٨	
سوهاج	الإدارة العامة والحسابات	خلف الساحة الشعبية بجوار قصر الثقافة	٠٩٣/ ٢٣٢٤٣٤٧	
قنا	الإدارة والمكتبة	شارع الجميل	٠٩٦/ ٥٣٢٣٢٣٠	
أسوان	الإدارة والمكتبة	السوق السياحي	٠٩٧/ ٢٣٠٣٨٣١	